إصلاح الأمة في ضوء الكتاب والسنة

(دراسة في مفهوم الإصلاح واتجاهاته وآلياته)

الدكتور نصار أسعد نصار
كلية الشريعة
جامعة دمشق

الملخص

تعيش أمة الإسلام أسوأ أيام حياتها؛ حيث ديست الحياض، ودنست المقدسات، وانتهكت الحرمات، وهتكت الأعراض، وأُذلت النفوس، ونهبت الثروات، ورمتها قوى البغي عن قوس واحدة، فصارت تترنح تحت ضربات الأعداء، كغريق في ظلمات بحر لجي، أحاط به ثلة من الأوغاد، كلما حاول الخروج منه ركلوه بأرجلهم، فلا يلاقي فيهم شفيقاً، ولا يجد منهم رحيماً.

وأصبحت الأمة ككرة تعبث فيها أقدام صبية، ما بين متغرب خرج من جلده، ومتهور استعمل القوة في غير محلها،[1] ومتقاعس لا هم له إلا الركض خلف شهوات البطن والفرج، وأما حال الغيارى، فكمن ينظر إلى أمه يصارعها الموت، فيجري يمنة ويسرة، منادياً: هل من مغيث؟ إلا أنها صرخة في فلاة ! ؟ فما المخرج مما تعانيه الأمة ؟ وما سبيل النجاة ؟ وما شكل الحل؟ وما آلياته؟.[2]

---

[1] - إعداد القوة وقتال الأعداء أمر يوجبه الدين، إلا أن النصر له شروطه، إذا حدث خلل في أحدها فلن ينصر الله ﷻ الأمة، كما في أحد وتبوك، واستخدام القوة دون تحقيق الشروط عبث يزيد الأمة عناء.

[2] - للبحث صلة، لم أتمكن من إدخاله؛ لأن المجلات المحكمة تشترط عدداً محدداً من الصفحات.

المقدمة:

توالت النكبات على الأمة منذ حين من الدهر، فبعد أن كانت في موقع الريادة وبيدها زمام القيـادة، صارت في المؤخرة لا تلوي على شيء، تخلفت عن ركب الحضارة، وتراجعت فـي ميـدان العلـم، وأصبحت لا تزرع ما تأكله، ولا تصنع ما تلبسه، ولا تنتج ما تحتاجه، وأمرها موكول إلى غيرهـا، وتسلط عليها البغاة، وتحكم فيها الأراذل، وتداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.[1]

وغدونا في زمن يأكل القوي فيه الضعيف، ويعتدي الكبير على الصغير، وانتشرت الفاحشة، و فشت الرذيلة، وأصبحت الأرض كغابة تفتك فيها الذئاب في الحملان الوادعة.

إن العالم بأسره يعيش في حالة اضطراب وقلق، وهو بحاجة إلى من يخفف عناءه، ويداوي جراحه، فإذا كان الطبيب عليلاً، فمن للمريض ؟. والبشرية لن تنال السعادة في الدنيا والنعيم في الآخرة، إلا إذا تفيأت الظلال الوارفة لهدي السماء، لأن عقلاء الأرض يقرون أن الخالق أعلم بما يصلح خلقـه منهم، والطبيب هو المسلم المستضيء بنور ذلك الهدي، إلا أن نور الاستضاءة خفت، فلا بـد مـن إعادة وصل وشجائج الاتصال ليصفو البث ويقوى الإرسال، عندئذٍ تتبدد الظلمات، ويزهق الباطل.

لهذا وقع اختياري على هذا البحث؛ للحاجة الملحة للإصلاح، وخطورة حال الأمة، الـذي يسـتدعي إسعافاً سريعاً، والعلاج يكمن في اتباع الهوى الإلهي الذي يحقق خيري الدنيا والآخرة، فمـن غيـر المنطقي أن تتجه البحوث إلى الوجهة النظرية البحتة، وتُترك الأمة مضرجة بدمائها.

بل العالم كله يعيش في فوضى ويتخبط خبط عشواء،[2] والإسلام هو المنقذ، وفيه الحل، والمسلم هو رجل الإطفاء وطبيب الإسعاف، الذي ينقذ العالم من الغرق ويشفيه من الداء.

يقع هذا البحث في ثلاثة مباحث، الأول: تحديد المفاهيم المتعلقة بالإصلاح، الثاني: اتجاهات

---

[1] - مصداقه: قول رسول ا ﷺ: (يوشِك الْأُمم أَن تَداعى علَيكُم كَما تَداعى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصعتِها فَقَالَ قَائِلٌ ومِن قِلةٍ نَحن يومئِذٍ قَالَ بلْ أَنْتُم يومئِذٍ كَثِير ولَكِنكُم غُثَاء كَغُثَاءِ السيل ولَينْزعن الله مِن صدورِ عدوكُم الْمهابةَ مِنْكُم ولَيقْذِفَن الله فِي قُلُوبِكُم الْـوهن فَقَـالَ قَائِلٌ يا رسولَ اللهِ وما الْوهن قَالَ حب الدنْيا وكَراهِيةُ الْموتِ). أبو داود، كتاب الملاحم، باب تداعي الأمم، (3745)، المسـند، مسند ثوبان، (21363).

[2] - يعاني العالم من الحروب والتضخم الاقتصادي والتلوث البيئي والجرائم والعري والفحش والفساد والتشتت الأسـري وسـائر المشاكل التي أورثتها الحضارة الصناعية والتي لا يمكن أن يوجد لها أي حل داخل إطار الحضارة الحالية، إن الإنسان في حاجة إلى نظام جديد يطلعه على هدفه في الحياة وتعد أمريكيا –وهي قائدة الحضارة الصناعية – أكبر وارث لنتائج تلك الحضـارة. والأمريكان نتيجة الشعور بالفراغ وعدم ملء حضارتهم للخواء الروحي يبحثون عن كل جديد، فدعاة البوذية والهندوكية يقومون بتربية مئات الآلاف من الأمريكيين. واقعنا ومستقبلنا، وحيد الدين خان، ص260

الإصلاح، الثالث: آليات الإصلاح:

المبحث الأول:

تحديد المفاهيم المتعلقة بالإصلاح:

تعريف الإصلاح لغة واصطلاحاً:

الإصلاح لغة: مأخوذ من صلح، وصلح يصلح ويصلُح صلاحاً وصلُوحاً، قال الفراء: حكى أصحابنا صلُح أيضاً بالضم. وقال ابن دريد: وليس صلُح بثَبت. والصلاح: ضد الفساد، والإصلاح: نقيض الإفساد، وأَصلح الشيء بعد فساده: أقامه، وأَصلح الدابة: أحسن إليها فصلحتْ، وأصلحه ضد أفسده، وصلح فلان بعد الفساد.[1]

فالإصلاح مأخوذ من الصلاح الذي هو مقابل للفساد والسيئة، وقال:﴿ ولا تُفْسِدوا فِي الأرض بعد إصلاحِها ﴾. [الأعراف 56]. قال تعالى: ﴿ وءاخَرون اعتَرفُوا بِذُنُوبِهم خَلَطُوا عملًا صالِحا وءاخَر سيئًا ﴾ [التوبة 102].

الإصلاح اصطلاحاً.

الإصلاح: تغيير الأحوال من السيئ إلى الحسن، ومن الفوضى والمخالفة إلى الالتزام والاستقامة.[2] ويتفق الإصلاح مع الثورة بأنهما يهدفان إلى تغيير الأحوال، إلا أن التغيير في الإصلاح لا يعتمد العنف منهجاً، ولا الاستعجال طريقاً، بينما تقوم الثورة على العنف والتغيير السريع.[3]

مفهوم الإصلاح:

الإصلاح بالمفهوم الإسلامي يستند إلى الموجبات الآتية:

1- الحاكمية المطلقة في هذا الكون ﷻ، فله الخلق والأمر، يفعل ما يشاء في خلقه، ويأمر بما يشاء، وينهى عما يشاء.

2- الإنسان خليفة الله ﷻ في الأرض، مهمته عمارتها وإقامة حكم الله ﷻ عليها، قال ﷻ: ﴿ وإذْ قالَ ربكَ لِلملائِكَةِ إني جاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً ﴾ [البقرة 30]. وقال ﷻ: ﴿ هو أَنْشَأَكُم مِن الأرض واستَعمركُم فِيها ﴾. [هود 61]. وقالﷻ: ﴿ ويجعلُكُم خُلَفاء الأرض ﴾. [النمل 62].

---

[1] - انظر: لسان العرب 6/-5. أساس البلاغة 1/3-2-3. الصحاح 1/1.تاج العروس 1/9-3.

[2] - التبيان في تفسير غريب القرآن، 58/1. التعاريف، للمناوي67/1 -68.

[3] - الموسوعة الإسلامية العامة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ص 159، 1424هـ - 2003م.

3- غاية وجود الإنسان في الحياة الدنيا، ابتلاؤه بالتكاليف واختباره بالمحن، ليظهر مدى التزامه بما شرع ا ﷻ: ﴿ الذِي خَلَقَ الموتَ والحياةَ لِيبلُوكُم أيُكم أحسن عملًا ﴾. [الملك 2].

4- ولتحقيق الخلافة، وتطبيق مبدأ الاختبار، أعطي الإنسان حرية الاختيار: ﴿لَا إِكْراه فِي الدين قَـد تَبين الرشْد مِن الغَي﴾ البقرة 256]. وذلك بعد إقامة البراهين ونصب الأدلة: ﴿وهديناه النجدين﴾. [البلد 10]. وأردف ذلك بإرسال الرسل عليهم والصلاة والسلام؛ ليكونوا هداة للناس ومقـومين لما انحرف من مسار البشرية، قال تعالى: ﴿ كان الناس أُمةً واحِدةً فبعثَ الله النبيـين مبشـرين ومنْذِرِين وأَنْزلَ معهم الكِتَاب بِالحق لِيحكُم بين الناس فِيما اخْتَلفُوا فِيهِ ﴾. [البقرة 213]. وقال ﷻ مبيناً مهمة الرسل: ﴿ وما نُرسِلُ المرسلِين إلا مبشرين ومنْذِرِين ﴾. [الكهف 56].

تحديد المشكلة:

بعد أن عرفنا موجبات الإصلاح في الإسلام، لابد من تحديد المشكلة، فما الذي تعانيه الأمة ؟ وأيـن يكمن العلاج ؟ وبعبارة أخرى، ما الداء الذي حل بجسم الأمة ؟ وما الدواء الناجع له ؟

تعاني أمة الإسلام الضعف والتخلف، وأصابها الذل والهوان، وصارت في مؤخرة الركب بعد أن كانت تقوده، وأصبحت مفتوحة الأرض ومستباحة العرض، تطاول عليها السفهاء، وتجرأ عليها الضعفاء، حتى غدت ميداناً تجرب فيها الأسلحة الجديدة، وأُذل أبناؤها، ودنس كتاب ربها.[1]

وحال الأمة يشبه جسماً داهمه فيروس فتك بجهازه المناعي، فصـارت حصـونه مهـددة، وقـواه مشلولة، وكذلك حال الأمة أمام جلاديها، كحمل وديع أمام ذئب غادر.

فأين الحل مما تعانيه الأمة ؟ وما المخرج مما هي فيه ؟.

إن أي تقدم أو رقي يحدث في أمة ما، يقوم على ركنيين أساسيين، الأول: القواعد والمبادئ الناظمة للعلاقات والدافعة للفعاليات، والثاني: الإنسان، الذي يسير بهدي القواعد ويستنير بضياء المبـادئ، فالمحرك والناظم، القواعد والمبادئ، والمنفذ هو الإنسان، إذن يقوم الإصلاح على ركنيين أساسين،

[1] - هذا ما فُعل بالمسلمين نساء ورجالاً، في سجون العراق وكونتانامو، من تدنيس للقرآن الكريم واعتداء مشـين، ينـدى لـه الجبين، على أجساد السجناء ؟ ولم يقف بهم الاستهزاء إلى هذا الحد، فقد كتب شياطينهم كتاباً سموه: الفرقـان الحـق، يريـدون إحلاله مكان القرآن الكريم، فهل تفيق أمة العرب أولاً، لتفيق بعدها جميع الأمة ؟. ووصل الاستهتار بأمة الإسلام إلى حد قيـام امرأة تدعي الإسلام – قيل إنها قاديانية - إلى أن تخطب الجمعة وتؤم النساء والرجال مصطفين بجانب بعضهم بعضاً، وتـؤذن لهم امرأة سافرة، والمكان: كنيسة ؟! وتنطح علماء المناصب وعبيد الشهوات فقالوا: المسألة خلافية، وهنـاك مـن روج لهـذه القضية قبل حدوثها فتكلم عنها في كتاب له، بعنوان: الإسلام والمرأة المعاصرة، ويروج لها أيضاً صاحب مبدأ: مذهب ابـن آدم الأول ؟!. فهل يجرؤ أحد في العالم أن ينتقد من يقدس الحجر أو من يشرب بول البقر؟ فحرية أولئك مكفولة، وإذلال المسـلمين واجب ؟!.

الأول: النظام، والثاني: الإنسان، فالنظام يوجه السلوك ويحدد الأطر، والإنسان يشيد الصروح ويبني المعالم، مستضيئاً بنور النظام وملتزماً بقواعد الأحكام.

وتخاف أي الأمة وتقهقرها، يعود لقصور أو عجز في أحد الركنيين السابقين، إما الخلل في النظام، أو في المنفذ. أما بالنسبة للنظام، فإن الحاكمية المطلقة في هذا الكون ﷻ، وهو خالق البشر، ولم يدعهم لشأنهم، إنما نصب الأدلة على قدرته، وأقام البراهين على قيوميتـه، وأردف ذلـك بإرسـال الرسل، ليدلوا الناس على الطريق الذي رسمه لهم، وأمرهم الالتزام به، وهو أقوم الطرق؛[1] لأنـه من عند موجد الخلق، الذي هو أعلم بما يصلحهم منهم، ودليل هذا لا يحتاج إلى كثير عناء، أو كبير فلسفة، فالأمر جد واضح؛ لأن له ﷻ الخلق والأمر، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ورسل ا ﷺ كانت تترا، فكلما هلك نبي أرسل ا ﷺ آخر بعده، ثم شاءت حكمته أن تختم الرسالات برسالة تبقى إلى يوم القيامة، وهي رسالة الإسلام، من سار على هديها فاز ونجا، ومن خالفها خاب وخسر.

إن النظام الإلهي يحمل مقومات تحقيق الرخاء في الدنيا، والنجاة في الآخرة، لأنه إلهي المصدر، كما أن التجربة أثبت صلاحيته، والبراهين دلت على حسنه.[2]

وبعد أن عرفنا صلاحية الركن الأول من أركان الإصلاح، لم يبق إلا تفحص أحوال الركن الثاني، وهو المنفذ، فكما هو معلوم، أنه بمقدار صلاح الشخص وإخلاصه، يكون العمل متقناً، وبمـدى فسـاده وسوء طويته يكون الناتج رديئاً، فالرجل الصالح يتقن عمله، ويخلص في صنعته، ويذود عن حياض وطنه، أما من كان طالحاً، أساء في عمله، وغش في صنعته، وتخاذل أمام الأعداء، وتقاعس عـن أداء الواجب... فإذا كانت في أداة التنفيذ خلل، كانت المخرجات مشوهة والنتائج سيئة، فالخلـل إذن محصور في أداة التنفيذ، [3] أما النظام فهو منزه عن ذلك كلياً.

---

[1] - قال ﷻ:﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقـون﴾. [الأنعـام 153].

[2] - إن ما يتشدق به زنادقة هذا العصر - أقول زنادقة دون وجل؛ لأن من يصرح بأن الإسلام غير صالح للتطبيـق فـي هـذا العصر، أو أنه يطبق منه جانب العبادة فقط، أو أن الصلاة تغني عنها رياضة اليوغا، والحج عبادة وثنيـة، والصـيام يضـعف الإنتاج، أليس في هذا تكذيب ﷻ ولرسوله ﷺ، وتطبيق لنظرية: دع ما لقيصر لقيصر ؟- إنما هو محض تخريف هـم أدرى من غيرهم بزيف ما تخرصوه، وهذه المواقف إنما هي ثمن خيانة، وعربون عمالة.

[3] - استفحل الخلل حتى وصل إلى من ينبغي أن يكونوا قادة الإصلاح في المجتمع، وهم فئة العلماء، فقد كثرت الفتـاوى فـي العصر الحاضر من علماء الأمة استجابة لأوامر من السلاطين أو خوفاً من تهديد دول الاستعمار، أو للحصول على منصـب أو لتحقيق شهرة، فمنهم من أباح الربا، وجوز خلع الحجاب والخروج عن الحياء ومنع تعدد الزوجات والقتال في فلسـطين غيـر جائز، وإباحة مصافحة النساء، واستمرار الحياة الزوجية بين المرأة التي أسلمت ولم يسلم زوجها.

وأدلة تلك الفتاوى واهية جداً، ومنها ما فيه مخالفة لما أجمع عليه الأئمة الأعلام، ففي قضية قتل المرتد، خرجت فتاوى تقـول بعدم قتله إن لم يكن محارباً، وهذا لم يقله أحد ممن سلف من علماء الأمة، إنما قيل في هذا العصر لإرضاء الرأي العام العالمي الذي يتظاهر بالحرية، ويدعي الديمقراطية، هذا إذا تعلق الأمر بالمسلمين، أما إذا تعلق بالغرب وربيبته الصهيونية، فيداس على الحرية وتلغى الديمقراطية، فقد ألقي بالمسلمين في السجون دون وجود تهم، وقيدت حريتهم وانتهكت كـرامتهم، وعنـدما لعـب

شبهات دعاة إقصاء الإسلام.[1]

تدعو ثلة من منتسبي الإسلام بالاسم والصورة دون الفكر والروح، إلى إقصاء الدين، وإيداعه في المساجد، وإبعاده إلى الزوايا، زاعمين أنه سبب تخلف الأمة.

فهل كان الإسلام عائقاً أمام أي تقدم، أو كان حائلاً دون أي رقي، أم كان على العكس من ذلك ؟. إن الحقيقة التي لا يماري فيها إلا جاهل ولا ينكرها إلا جاحد، ولا يخفيها إلا حاقد، أن الإسلام دين مجد العلم وكرم العلماء، وأول آية أُنزلت دعت إلى التعلم: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾، ورسول الهدى ﷺ جعل فداء أسارى بدر تعليم عشرة من الصحابة القراءة والكتابة، كما أنه طلب من زيد بن ثابت ﷺ تعلم لغة يهود ليعرف ما عندهم، والمسلمون أقبلوا على المعارف، التي كانت في عصرهم - وهي إرث إنساني أسهمت فيها كل الأمم - فنهضوا بها، بعد أن أكبوا عليها ترجمة ودراسة، ولولا إسهامهم لما وصلت البشرية إلى الحالة الموجودة في العصر الحاضر، اعترف بذلك المنصفون من غير المسلمين.[2]

والمشكلة التي تقع فيها الأمة الآن مزدوجة، التخلف وتسلط الأعداء من جهة، وحماقة ثلة من أبناء الأمة، من جهة ثانية، لا يجيدون إلا التقليد الأعمى دون بصيرة كالببغاوات، وكالغربان التي لا تأكل إلا الجيف، فهم لا يجلبون من الغرب إلا القمامة، من خلاعة ومجون، ولا من موائده إلا الفتات، ويدعون وسائل التقدم وسبله.

اضطر الغرب لإتمام مسيرة التقدم، أن يقصي الكنيسة عن مسرح الحياة، ويبعد رجال الدين عن شؤون المجتمع، وحصر دور الدين في دور العبادة، ودافعه في هذا، الدور السلبي الذي قام به رجال الدين، ابتداء من معاداتهم للعلم وقتلهم للعلماء، وانتهاء بفساد أخلاقهم وسوء فعالهم، ولما حواه الكتاب المقدس من تناقضات،[3] ولما اشتمل عليه من مغالطات، فضلاً عن إغراق النصرانية في الدعوة إلى الزهد في الدنيا وعدم وجود تشريعات وحلول للقضايا الاجتماعية والاقتصادية ... فلما

المسلمون لعبتهم في الديمقراطية، ألغوها دون وجل، كما حدث في الجزائر وتركيا، وكما جرى مع روجيه جارودي، فعندما كشف زيف الادعاء الصهيوني في المحرقة، نصبوا له المحاكم لأنه يحرض على معاداة السامية، والموقف نفسه وقفوه مع استطلاع الرأي الذي أجري في أوروبا عن الدولة الأكثر خطراً في العالم، وكانت النتيجة بنسبة 60% أنها إسرائيل، فقالوا مدافعين عن دويلة الغدر: ارتفعت النسبة نتيجة وجود تشنج في الشارع الأوروبي ؟ متعامين عن قتل الأطفال وسفك الدماء وهدم المنازل واقتلاع الأشجار وابتلاع الأراضي ؟!.

[1] - لا يتسع المقام للرد التفصيلي على تخرصات القوم، إنما يتم إن شاء ا تعالى في بحث مستقل.

[2] - كما فعلته زغريد هونكة، صاحبة كتاب شمس ا تسطع على الغرب.

[3] - ذكرت دائرة المعرف البريطانية أن في الكتاب المقدس أكثر من مئة وخمسين ألف تناقض.

رأوا أن هذا الدين لا يصلح الدنيا بل وجوده معوق وبقاؤه عقبة، أقصـوه جانبـاً ونحـوه بعيـداً، وحصروا مهمته في دور العبادة.

فهل دواعي الإقصاء تلك موجودة في الإسلام ؟ فإنها لو وجدت بنسبة واحد بالألف، لقلنا لهم: أنتم محقون في دعوتكم، وشكراً لكم على غيرتكم على أمتكم وحرصكم الشديد على رقيها ؟

إن التخلف الذي تعاني منه الأمة، ليس للإسلام فيه أدنى سبب؛ لأنه دين العلم ومنتجع العلماء، فبدل تناقضات الكتاب المقدس وخرافاته - ومع هذا لم يطرحوه - القرآن الكريم سجل للإعجـاز العلمـي وكتاب للحقائق الثابتة، وملهم العزة، ومنبع الكرامة، ومصدر القوة، ومع هذا أقصي جانباً، بينما هم مستمسكون بكتابهم ؟! ، فهل الذل الذي نعيشه كان بسبب أمر إسلامي: إذا ضربت على خدك الأيمن فأدر الأيسر.

كان الإسلام سبب تقدم الأمة، ومصدر نهضتها، ورمز عزتها، شارك في تطوير العلوم، وأسهم فـي تقدم الإنسانية، ولم يقف في وجه أي تحديث أو تجديد للحياة، بل جعل تعلم النافع من العلوم فـرض كفاية، تأثم الأمة بأسرها إن لم يتعلمه بعض أفرادها. فأي نظام في العالم، أو دستور في الكـون، أو قانون في دولة، يقرر مثل هذا التشريع ؟.

إن أي اعتراض بعد هذا البيان، ممن ينتسبون إلى الإسلام بأسمائهم ويخالفونه بأفكارهم، إنما هـو من قبيل التخرصات المحضة، والافتراءات المغرضة، والمزاعم الباطلة، ولا نتجنى إن قلنا إنها خيانة ولرسوله.

وتوجد ثلة أخرى ربما كانت أقل عداء – ظاهراً على الأقل- من سابقتها، ترفع شـعارات التحـديث والتطوير... لعلاج مسالة التخلف، تحت عناوين: أزمة الفكر العربي، أو مشكلة العقـل العربـي... يدعو هؤلاء إلى ضرورة فتح باب الاجتهاد والتوسع في فهم النصوص الشرعية... وهم لا يتهمون الإسلام مباشرة، إنما يتهمون علماء الأمة بالجمود في فهم نصوص الدين، وإغلاق باب الاجتهاد.

هذه الدعوة ظاهرها فيه الرحمة، وباطنها فيه العذاب، لأنهم يريدون فتح باب الاجتهـاد لكـل غـاد ورائح، ودون ضوابط، بعد ذلك تخرج علينا أحكام تشرق وآراء تغرب، فالاجتهاد بابه مفتوح لكـن لأهله وضمن قواعده، فمن كان حداداً لا يمكنه صنع لوحة فنية رائعة الجمـال وبـأدوات الحـدادة، ومهارة طبيب حاذق تعود عليه بالويل والثبور إذا استخدم سكين الجزار، أو مطرقة الحداد، وموهبة فنان تضيع إذا استعمل فرشاة الطلاء بدل ريشة الرسام، فباب الاجتهاد مفتوح، لكن لأهله وبأدواته، وهو مغلق لغير المختصين ومن لا يستعمل أدواته الخاصة به، وهذه الأدوات لا يمكن تغييرهـا أو الاستعاضة عنها؛ لأنها مأخوذة من قواعد ونصوص الدين ومن دلالات اللغة العربية التي هي وعاء نصوص الشريعة. وقواعد الدين ثابتة، ودلالات اللغة لا تتغير. إن كل شيء له حرمته ولا يتـدخل

فيه من لا اختصاص له، إلا الدين، فإنه أصبح مستباحاً لكل الفئـات، مـن المهنـدس إلـى عامـل التنظيفات.

الهدف من الإصلاح والغاية منه:

بعد أن يتمكن الطبيب من تشخيص المرض وتحديد موضعه، يسهل عليه وصف علاج الداء ووصف الدواء، وبعد أن عرفنا سلامة المنهج الرباني وصلاحيته، وبعد أن وصِفَ المرض وحدد موضـعه، وأنه في الإنسان، العنصر المنفذ، بقي علينا أن نبحث عن الدواء الناجع والبلسم الشافي للأمـراض التي تعاني منها الأمة.

مما سبق يتبين لنا أن المشكلة عن عدم امتثال الأمة للمنهج الرباني، الذي يحقق السـعادة، ويحـل الطيبات ولا يحرم إلا الخبائث، ولا يمنع التطور، ولا يعيق التقدم. إن الغاية من الإصلاح، هي: تقويم الاعوجاج الذي طرأ على مسار البشرية، حتى تسير في الطريق الذي رسمه الخالق ﷻ؛ ولـن يـتم ذلك إلا بتربية أبناء الأمة - لأنهم المنفذون للشرع - وفق النظام الإلهي، ليقوموا بمهام الخلافـة بصدق وإخلاص، فتتحقق غاية وجود الإنسان: ﴿ وما خَلَقْتُ الجِن والإِنْس إِلا لِيعبدون ﴾ [الـذاريات 56].

على العطاء وحب الخير، ليشيد حضارة تقدم ما ينفع البشرية وتدفع عنها ما يضر- لا حضارة التهام الثروات، وإذلال الشعوب- وتقيم علاقات مع الأمم الأخرى: ﴿وجعلْنَاكُم شُـعوبا وقَبائِـلَ لِتَعـارفُوا﴾ [الحجرات 13]، وتصون الحرية الفكرية: ﴿ لَا إِكْراه فِي الدين﴾ [البقـرة 256]، وفـي الآخـرة:﴿إِن حِسابهم إِلا على ربي لو تَشْعرون ﴾ [الشعراء 113]، وتعمل على نشر العدالة: ﴿ إِن الله يأْمر بِالْعدل والْإِحسان ﴾ [النحل 90]. وتسعى إلى تحقيق المساواة: (كلكم لآدم وآدم من تراب)،[1] وتدعو إلى السلم العالمي: ﴿لا ينْهاكُم الله عن الذِين لم يقَاتِلُوكُم فِي الدين ولم يخْرِجوكُم مِن دِيارِكُم أَن تَبـروهم وتُقْسِطُوا إِلَيهِم﴾ [الممتحنة 8].

فالإنسان هو أداة البناء، ومصنع الإنتاج، فإذا صلح، أصلح ما حوله، وإذا فسد، أفسـد كـل شـيء. والذي أصاب الأمة من تخلف وضعف وتسلط... إنما هو أعراض لفساد الإنسان الذي تقاعس عـن أداء واجبه بشكل صحيح.

ومثال تلك الأعراض، كجسم توقفت بعض أجهزته أو ضعفت فعاليتها، فدهمته الجراثيم، وتسللت إليه الأمراض، والحل المجدي يكمن في إعادة بناء الجسم ليقوى على دفع الهجمات المتوقعة. فـالتخلف

---

[1] - شعب الإيمان 288/4، (5136). مسند الربيع 170/1، (419).

والهزيمة... إنما هي أعراض لفساد الإنسان؛ فهو الذي يبني الحضارة ويشيد الصروح... فالإصلاح الحقيقي لا يتوجه إلى الأعراض بل يبحث عن الأسباب، لأن التوجه إلى الأعراض لا يحل المشـكلة، وحال من توجه إلى الأعراض وحاول علاجها، كمن يعالج ثمار شـجرة مريضـة، تربتهـا سـيئة وغذاؤها رديء والهوام تحيط بها، فمعالجة ثمارها واحدة بعد أخرى ليس حلاً مجدياً؛ لأنه سـيواجه المشكلة نفسها مع الثمار القادمة،.والحل الناجع يكون بمعالجة الشجرة التي تنتج الثمار، والمحـيط الذي حولها، وليس الثمار ؟!.[1]

ضرورة الإصلاح وأهميته:

تتجلى ضرورة الإصلاح وتتضح أهميته، من خلال النقاط الآتية:

1- الإصلاح أمر يقتضيه التكليف، ويتطلبه الابتلاء، لأن الإنسان مكلف بعمارة الكون وفق المنهج الإلهي، ونظراً لأنه مبتلى، والأشخاص متفاوتون في مقدار الطاعة والمعصية، ممـا يقتضـي قيـام المطيعين برد العاصين إلى جادة الصواب، وإلا هلكوا جميعاً، قال تعالى: ﴿ولولا دفْـع اللـهِ النـاس بعضهم بِبعضٍ لفسدتِ الأرض﴾. [البقرة 251]. وشبه رسول ا ﷺ حال القـريقين بـالقوم الـذين استهموا على سفينة،[2] كما شبه رسول ا ﷺ حال المعرضين عن اتباع الهدي الإلهي، بـالفراش المتدافع إلى النار، حيث يلقى حتفه.[3]

وترك العصاة يعبثون في الأرض فساداً، يؤدي إلى اختلال نظام الكون، مما يجعل الحياة مضـطربة، فالإصلاح ضروري لبقاء الجنس البشري، وتوقفه في أمة ما يؤدي إلى هلاكها،[4] واستمراره في أمة

---

1 - قد يقول قائل: هذا الكلام لا يتضمن حلاً للمشاكل التي تئن تحت وطئتها الأمة، فكيف تتخاص الأمة من الفقر، وتقضي على التخاف، وتحصل على العزة، وتسترد كرامتها، وتستقل بقرارها...؟ والجواب، ما قيل إنما هو أعـراض لمـرض، ومعالجـة العرض لا تنهي المرض، ولا تُحل المشكلة إلا بالبحث عن السبب الذي أنتج تلك الأعراض، فمن آلمه رأسه، يعود سببه إلى داء في بطنه أو عينيه... والمسكنات التي تؤخذ إنما هي علاجات آنية لا تقضي على السبب، إن أصل المشكلة أساسه عدم تأديـة الأشخاص لواجباتهم على الشكل المطلوب، فبعد إصلاح الأصل، يقوم المختصون بوضع البرامج التفصيلية كل في مجاله، ليعمل الأشخاص الصالحون على تنفيذ مضمون الخطط التي وضعت.

2 - الحديث: (مثَلُ الْقَائِمِ علَى حدودِ اللهِ والْواقِعِ فِيها كَمثَلِ قَومٍ استَهموا علَى سفِينَةٍ فَأَصاب بعضهم أَعلَاها وبعضـهم أَسـفَلَها فَكَان الَّذِين فِي أَسفَلِها إِذَا استَقَوا مِن الْماءِ مروا علَى من فَوقَهم فَقَالُوا لَو أَنا خَرقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرقًا ولَم نُؤْذِ مـن فَوقَنَـا فَـإِن يتْركُوهم وما أَرادوا هلَكُوا جمِيعا وإِن أَخَذُوا علَى أَيدِيهِم نَجوا ونَجوا جمِيعا). البخاري، كتاب الشركة، باب هـل يقـرع فـي القسمة، (2313).

3 - قال ﷺ: (إِنما مثَلِي ومثَلُ الناسِ كَمثَلِ رجلٍ استَوقَد نَارا فَلَما أَضاءتْ ما حولَه جعلَ الْفَراشُ وهذِهِ الدواب الَّتِي تَقَع فِي النارِ يقَعن فِيها فَجعلَ ينْزِعهن ويغْلِبنَه فَيقْتَحِمن فِيها فَأَنَا آخُذُ بِحجزِكُم عن النارِ وهم يقْتَحِمون فِيها). البخاري، كتاب الرقائق، بـاب الانتهاء عن المعاصي، (6002). مسلم، كتاب الفضائل، باب شفقته على أمته، (4234).

4 - قَالَ عبداللهِ بن عمرو بن الْعاصِ ﵁: (لَا تَقُوم الساعةُ إِلا علَى شِرارِ الْخَلْقِ هم شَر مِن أَهلِ الْجاهِلِيةِ لَا يدعون الله بِشَيءٍ إِلا رده علَيهِم). مسلم، كتاب الإمارة، باب لا تزال طائفة من أمتي، (3550).

ما ولو كانت غير مسلمة سبب لبقائها، قال ﷻ:﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾. [هود 117].[1] وقال رسول ﷺ: (اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرا فإنه ليس دونها حجاب).[2] وا ﷻ لا يهلك التائبين ولا يعذب المستغفرين: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾. [الأنفال 33]. والأمة التي تكثر فيها المعاصي تعرض نفسها لنقمة ا ﷻ.[3]

إن استمرارية الإصلاح أمر توجبه القوانين، وتقتضيه طبيعة البشر، فكل الدول تسن القوانين سعياً لإصلاح ما فسد وترميم ما خرب، هذا من جهة، والنفس البشرية مجبولة على حب التخلص من القيود والتفلت من الضوابط، كما أن للبعد الزماني والمكاني أثراً في تراجع الالتزام، هذا من جهة ثانية، كل هذا يستوجب استمرار الإصلاح، وإلا فسد البشر وأصبحوا أكثر فتكاً من الوحوش.

وأشار القرآن الكريم إلى أن الأمة التي ليس فيها بقية من المصلحين يدمرها ا ﷻ، قال ﷻ: ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ﴾. [هود 116].[4]

2- خصوصية الإصلاح في الإسلام:

أرسل ا ﷻ الرسل لهداية البشر، وختمها برسالة الإسلام، قال رسول ا ﷺ: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي)،[5] وجعلها ناسخة لكل الشرائع التي سبقتها، قال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[التوبة 33]، ونظراً لأنه لا نبي بعد خاتم النبيين ﷺ، فمسؤولية الحفاظ على الشريعة

---

[1] - في معنى الآية قولان : أحدهما أن ا ﷻ لا يهلك قوماً بمجرد الشرك إذا تعاطوا الإنصاف فيما بينهم ولم يظلم بعضهم بعضاً، والثاني: أن ا ﷻ لا يظلم أهل قرية، فيهلكهم بلا جناية والأول أشهر. تفسير السمعاني 467/2.

[2] - المسند، عن أنس ﷺ، (12091).

[3] - عن زينب بنت جحش رضي الله عنها، أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا يقول: (لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها قالت زينب بنت جحش: فقلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم إذا كثر الخبث). البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، (3097). مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن، (5128).

[4] - قال الفخر الرازي: اعلم أنه تعالى لما بين أن الأمم المتقدمين حل بهم عذاب الاستئصال بين أن السبب فيه أمران، السبب الأول: أنه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد في الأرض فقال تعالى: ﴿ فلولا كان من القرون ﴾، والمعنى: فلولا كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام ا تعالى ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي. والسبب الثاني لنزول عذاب الاستئصال، قوله: ﴿ واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ﴾، وأراد بالذين ظلموا تاركي النهي عن المنكرات أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واتبعوا طلب الشهوات واللذات واشتغلوا بتحصيل الرياسات. التفسير الكبير 60/18.

[5] - البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، (3196). مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، (3429).

وتبليغ الدين انتقلت إلى الأمة، قال ﷺ: ﴿وإنه لذِكْر لك ولقومك وسوفَ تُسألون﴾[الزخرف44]. وقال أيضاً:﴿ كُنْتُم خَيرَ أُمةٍ أُخْرِجتْ لِلناسِ تأمرون بِالمعروفِ وتَنْهون عـن المنكـر﴾[آل عمـران 110]، والأمة نائبة عن النبي ﷺ في حمل مسؤولية الدين، قال ﷺ: ﴿قُلْ هذِهِ سبِيلِي أَدعو إِلى اللـهِ علـى بصِيرةٍ أَنَا ومن اتبعنِي﴾ [يوسف 108]. وأثنى رسول ا ﷺ على من يصلح ما أفسده الناس، قـال ﷺ: (إِن الدين بدأَ غَرِيبا ويرجِع غَرِيبا فَطُوبى لِلْغُرباءِ الَذِين يصلِحون ما أَفْسد الناس مِن بعدِي مِن سنتِي).[1] وإذا تقاعست الأمة عن أداء ما كلفت به عرضت نفسها للعقاب، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:(ما مِن قَومٍ يعملُ فِيهِم بِالمعاصِي هم أَعز مِنْهم وأَمنَع لَا يغَيرون إِلَا عمهم الله بِعِقَابٍ).[2]

3- الإصلاح بالمفهوم الإسلامي يقوم على الالتزام بما أمر به ا ﷺ، قال تعالى: ﴿ والَذِين يمسكُون بِالْكِتَابِ وأَقَاموا الصلَاةَ إِنا لَا نُضِيع أَجر المصلِحِين ﴾.[3] [الأعراف 170]. وفي الآية أسلوب بلاغي له دلالة، وهو الإظهار في موضع الإضمار، حيث قامت لفظة (المصلحين) مقام الضمير،[4] للدلالـة على أن المتمسك بالكتاب حقيقة، يكون مصلحاً،[5] وهم الذين يلتزمون أحكامه، ويصدقون بأخبـاره، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويحلون حلاله، ويحرمون حرامه، كل ذلك وفق سنة رسول ا ﷺ، القائل: (كُلُّ أُمتِي يدخُلُون الْجنةَ إِلَا من أَبى قَالُوا يا رسولَ اللهِ ومن يأْبى ؟ قَالَ من أَطَاعنِي دخَلَ الْجنةَ ومن عصانِي فَقَد أَبى).[6]

ما يقع عليه الفساد:

يقع الفساد على ما يسمى بالكليات الخمس، التي جاءت الشريعة لصيانتها وهي: الـدين، والـنفس، والعقل، والعرض، والمال، قال تعالى: ﴿ ولَا تُفْسِدوا فِي الْأَرضِ بعد إِصـلَاحِها ﴾ [الأعـراف 56]. ومعنى الآية: لا تفسدوا شيئاً في الأرض، فيدخل فيه المنع من إفساد الأديان بالكفر والبدعة، وإفساد النفوس بالقتل وبقطع الأعضاء، وإفساد العقول بشرب المسكرات؛ وإفساد الأنساب بالإقـدام علـى

---

[1] - الترمذي وقالَ: حسن صحِيح، كتاب الإيمان، باب بدأ الإسلام غريباً. (2554). قال ابن تيمية: والغرباء في العالم هم أهـل هذه الصفة المذكورة في الآية – فَلَولَا كَان مِن الْقُرون مِن قَبلِكُم أُولُو بقِيةٍ ينْهون عن الْفَسادِ - وهم الذين أشار إليهم النبـي ﷺ، في قوله: بدأ الإسلام غريباً...مدارج السالكين 3 / 194.

[2] - أبو داود، كتاب الملاحم، باب المر والنهي، (3776)، ابن ماجه، واللفظ له، كتاب الفتن، باب الأمر بـالمعروف، (3999). قَالَ أَبو بكْرٍ الصديق رضي الله عنه: (يا أَيها الناس إِنكُم تَقْرءون هذِهِ الْآيةَ يا أَيها الَذِين آمنُوا علَيكُم أَنْفُسكُم لَا يضركُم من ضل إِذَا اهتَديتُم وإِني سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: إِن الناس إِذَا رأَوا ظَالِما فَلَم يأْخُذُوا علَى يديهِ أَوشَك أَن يعمهم الله بِعِقَابٍ مِنْـه). الترمـذي، وقال: حسن صحِيح، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المائدة، (2983). أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، (2755).

[3] - قال ابن كثير: أي اعتصموا به واقتدوا بأوامره وتركوا زواجره. تفسير ابن كثير 261/2.

[4] - أي لم يقل: إنا لا نضيع أجرهم.

[5] - التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي 53/2.

[6] - البخاري كتاب الاعتصام باب الاقتداء بسنن رسول ا ، (6737).

الزنا، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة ووجوه الحيل؛ لأن المصالح المعتبرة في الدنيا هـي هـذه الخمسة: الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وقوله تعالى: (ولا تفسدوا) منع عن إدخال ماهية الإفساد في الوجود، والمنع من إدخال الماهية في الوجود يقتضي المنع من جميع أنواعه وأصنافه، فيتناول المنع من الإفساد في هذه الأقسام الخمسة.وقوله: (بعد إصلاحها)، يحتمل أن يكون المراد بعد أن أصلح خلقتها على الوجه المطابق لمنافع الخلق والموافق لمصـالح المكلفـين، ويحتمـل أن يكون المراد بعد إصلاح الأرض بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب، كأنه تعالى قال: لمـا أصـلحت مصالح الأرض بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب وتفصيل الشرائع فكونوا منقادين لها، ولا تقدموا على تكذيب الرسل وإنكار الكتب والتمرد عن قبول الشرائع فإن ذلك يقتضي وقوع الهرج والمرج في الأرض فيحصل الإفساد بعد الإصلاح وذلك مستكره في بداهة العقول.[1]

وجهتا الإصلاح:

للإصلاح وجهتان، الوجهة الأولى: المحافظة على ما هو صالح، من قيم فاضلة، ومعـارف نافعـة، ومكتسبات مفيدة.[2] قال ﷻ على لسان هود ﵇: ﴿ وما أُريد أن أُخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أُريد إلا الإصلاح ما استطعتُ ﴾ [هود 88]. وقال على لسان موسى ﵇: ﴿ وقالَ موسى لِأَخيـهِ هـارون اخْلُفْنِي فِي قَومِي وَأَصلِح ولا تَتبِع سبِيلَ المفْسِدِين ﴾ [الأعراف 142].

الوجهة الثانية: منع التصرفات المفضية إلى فساد القيم، ونشر الرذيلـة، وقتـل النفـوس، وهتـك الأعراض... قال تعالى: ﴿ واتقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبن الذِين ظلَموا مِنْكُم خَاصةً ﴾. [الأنفـال 25]. وقـال ﷻ: ﴿ ولولا دفْع اللهِ الناس بعضهم بِبعض لهدمتْ ﴾ [الحج40]. وقال أيضاً: ﴿ما كان ربك لِيهلِك القُرى بِظُلْمٍ وأَهلُها مصلِحون ﴾ [هود 117]. وا ﷻ نهى عن الإفساد في الأرض؛ حيث قال:﴿ ولا تُفْسِدوا فِي الْأَرض بعد إِصلاحِها ذَلِكُم خَير لكُم إِن كُنْتُم مؤْمِنِين ﴾ [لأعراف 85]. وقالﷻ: ﴿ ولَـا تَعثَوا فِي الأرض مفْسِدِين ﴾ [هود 85].

المبحث الثاني:

اتجاهات الإصلاح:

الإصلاح من أعظم الأعمال، وأنبل الواجبات، وأشرف المناصب؛ لأنه عمل الأنبياء عليهم صلوات ا وسلامه؛ كما أنه من دونه يطغى الفساد، ويعلو الشر، ويقل الخير، والساعة لن تقوم إلا على شرار

---

[1] - التفسير الكبير، 14/ 108- 109.

[2] - رسالة في الإصلاح ص10.

الخلق، وهم الذين لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً.[1] وقد كثُرت النظريات، وتعددت الاتجاهات التي تعالج قضية الفساد وكيفية إصلاح المجتمعات، والأمة الإسلامية تشترك مع غيرها من الأمم في الخطوط العريضة للإصلاح، إلا أن لها خصوصيات فرضها تصديقها بكتاب ا ﷻ، وأوجبها اتباعها سنة رسول ا ﷺ، فأي قانون يسن، أو تشريع يفرض، أو قرارات تتخذ... تخالف قواعد الإسـلام، مرفوضة، والإصلاح في الثقافة الإسلامية له اتجاهان، الأول: الإصلاح انطلاقاً من القمـة، الثـاني: الإصلاح انطلاقاً من القاعدة.

الاتجاه الأول: الإصلاح انطلاقاً من القمة:

قامت في العالم الإسلامي محاولات للاستيلاء على الحكم بالقوة، لكن أي منها لم يفلح في الوصـول إلى النتيجة المرجوة، فكانت البداية مع عبدا بن الزبير ﷺ، ثم تبعه الحسـين ﷺ، مـع أن أكثـر المسلمين متعاطفون معهما، وقام بعد الحسين حفيده زيد بن علي بن الحسين، حيث خرج على هشام بن عبدالملك، وكانت النتيجة أن قتل وصلب سنة (122هـ)، ومما يدل على تعاطف عامة المسلمين معه، أن أبا حنيفة أرسل له عشرة آلاف درهم، ثم قام ذو النفس الزكية – محمد بـن عبـدا بـن الحسن ﷺ- بثورة باءت بالفشل، وكان أبو حنيفة ومالك من مناصريه. [2]

وتتابعت المحاولات عبر التاريخ الإسلامي لكن لم تنجح أي منها، بل جرت الويلات على الأمة، حيث جرأت الحكام على البطش والتنكيل.[3]

ويمثل هذا الاتجاه فريق من العلماء قال بوجوب الخروج على الحاكم إذا فسد،[4] وأبرز من قال بذلك، الخوارج، والمعتزلة، والزيدية وكثير من المرجئة.[5] ويمثلهم قال أبو حنيفة رحمه ا تعالى، فقـد كان مذهبه مشهوراً في قتال الظلمة وأئمة الجور ولذلك قال الأوزاعي: احتملنا أبا حنيفة علـى كـل شيء حتى جاءنا بالسيف- يعني قتال الظلمة - فلم نحتمله. وكان من قوله وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض بالقول، فإن لم يأتمر له فبالسيف على ما روي عـن النبـي ﷺ، وسـأله

---

[1] - قال رسول ا ﷺ: (...فَيبقَى شِرار الناسِ فِي خِفةِ الطيرِ وَأحلَامِ السباعِ لَا يعرِفُون معروفًا ولَا ينْكِرون منْكرا فَيتَمثـلُ لَهـم الشيطَان فَيقُولُ أَلَا تَستَجِيبون فَيقُولُون فَما تَأْمرنَا فَيأْمرهم بِعِبادةِ الْأَوثَان). مسلم كتب الفتن وأشراط الساعة، باب خروج الدجال، (5233).

[2] - استفتى أهل المدينة مالك بن أنس في الخروج مع محمد ذي النفس الزكية، وقالوا إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر المنصور، فقال: إنما بايعتم مكرهين وليس على كل مكره يمين فأسرع الناس إلى محمد ولزم مالك بيته. تاريخ الطبري427/4.

[3] - رجال الفكر والدعوة والإصلاح، أبو الحسن الندوي، ص 73.

[4] - مسألة الخروج على الحكام فيها رأيان أساسيان، فريق قال بوجوب الخروج على الحكام، وفريق آخر قـال بعـدم جـواز الخروج، كما يأتي بيانه في الاتجاه الثاني.

[5] - مقالات الإسلاميين، لأبي الحسن الأشعري 451/1- و466، الفرق بين الفرق، البغدادي ص55.

إبراهيم الصائغ عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال: هو فرض، وحدثه بحديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فـأمره بـالمعروف ونهاه عن المنكر فقتل.[1]

استدل القائلون بوجوب الخروج على الحاكم، بعموم آيات وأحاديث، منها: قوله تعـالى: ﴿وتَعـاونُوا على الْبِر والتقْوى﴾[التوبة 2]. وقوله: ﴿فَقَاتِلُوا الَتِي تَبغِي حتى تَفِيء إِلَى أَمرِ اللَهِ﴾[الحجرات 9]. كما احتجوا بقوله ﷻ: ﴿لَا ينَالُ عهدِي الظَالِمِين ﴾[البقرة 124].[2]

وهذه الأدلة غير ناهضة؛ لأن الآيات التي استدلوا بها ليست نصاً في المسـألة، بـل هـو اسـتدلال بعموميات لها دلالات عديدة، وكما هو معروف في أصول الفقه: أن الدليل إذا تعرض للاحتمال سـقط به الاستدلال.[3]

الاتجاه الثاني: الإصلاح انطلاقاً من القاعدة:

قال جمهور علماء الأمة بعدم جواز الخروج على الحكام.[4]ا بمعنى أن منطلق الإصلاح من القاعـدة وليس من القمة.

من العلماء من نقل انعقاد إجماع علماء الأمة بعد القرون الثلاثة الأولى، على عدم جـواز الخـروج على الحكام،[5] قال الإمام النووي: (وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين، وإن كانوا

1 - أحكام القرآن، للجصاص 86/1- 87. والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط، وفيه راو ضعيف، مجمع الزوائد، 272/7.

2 - مقالات الإسلاميين، 451/1.

3 - قال الشوكاني: (وقَد استَدل الْقَائِلُون بِوجوبِ الْخُروجِ علَى الظَلَمةِ ومنَابذَتِهِم السيفَ ومكَافَحتِهِم بِالْقِتَال بِعموماتٍ مِن الْكِتَـابِ والسنةِ فِي وجوبِ الْأَمرِ بِالْمعروفِ والنهي عن الْمنْكَرِ، ولَا شَك ولَا ريب أَن الْأَحادِيثَ الَتِي ذَكَرها الْمصنفُ فِـي هـذَا الْبـابِ وذَكَرنَاها أَخَص مِن تِلْك الْعموماتِ مطْلَقًا، وهِي متَواتِرةُ الْمعنَى، ولَكِنه لَا ينْبغِي لِمسلِمٍ أَن يحط علَى من خَرج مِن السلَفِ الصالِحِ مِن الْعِتْرةِ وغَيرِهِم علَى أَئِمةِ الْجورِ فَإِنهم فَعلُوا ذَلِك بِاجتِهادٍ مِنْهم، وهم أَتْقَى لِلَهِ وأَطْوع لِسنةِ رسول اللَهِ ﷺ مِن جماعةٍ مِمن جاء بعدهم مِن أَهل الْعِلْمِ). نيل الأوطار 205/7،

4- من أبرز من يمثل هذا الرأي جعفر الصادق (80-148هـ)، حيث عاش في عصر مضطرب مليء بالأحداث، وعاين الظلم الذي وقع على آل بيت رسول ا ﷺ. لكنه تفرغ للعلم والتعليم وإرشاد الناس، وعارض الثورة والخروج المسلح على أئمة الجور خوفاً من الفتنة وحقناً لدماء المسلمين، فما تعرض للإمامة قط ولا نازع أحداً في الخلافة، وكان يقول لآل البيت: إن بنـي أميـة يتطاولون على الناس حتى لو طاولتهم الجبال لطالوا عليها وهم يستشعرون بغض أهل البيت ولا يجوز أن يخرج واحد من أهل بيته حتى يأذن ا تعالى بزوال ملكهم. الملل والنحل، للشهرستاني، 1/ 156 وص 166. ومثله أحمد بن حنبل (164-241هـ)، حيث عاصر الفتن ولم ينج من المحن، لم ير الخروج على السلطان، لأن الخروج عليهم شق لعصا المسلمين، تـاريخ الطبـري 190/5، الأحكام السلطانية لأبي يعلى الحنبلي ص ص21. اعتقاد الإمام المبجل أحمد بن حنبل ص305.

5 - قال محمد بن محمد بن مصطفى الخادمي: (ولَا يجوزَ الْخُروجِ علَى السلْطَان وكَذَا عزله؛ لِأَن الْخُروج علَيهِ ولَو ظَالِما لِكَونِهِ فِتْنَةً أَشَد مِن الْقَتْل وكَذَا الْمعاونَةُ لِقَومٍ مظْلُومِين مِن جِهتِهِ إذَا أَرادوا الْخُروج علَيهِ وكَذَا الْمعاونَةُ له فِي هذِهِ الصورةِ لِكَونِهِ إعانَةً علَى الظلْمِ، لَعل هذَا مِن قَبِيل الْأَخْذِ بِأَخَف الضررين عِنْد تَعارضِهِما إذْ الْخُروج علَى السلْطَان الظَالِمِ لِظُلْمِهِ يفْضِي إلَـى سـفْكِ دِماءٍ كَثِيرةٍ مِن الطرفَين ومحارباتٍ ومقَاتَلَاتٍ أَكْثَر ضررا مِن ظُلْمِ السلْطَان). برقية محمودية 124/3. وقَالَ التفْتَازانِي: (ولَـا ينْعزِلُ الْإِمام بِالْفِسقِ والْجورِ لِأَنه قَد ظَهر الْفِسقُ وانْتَشَر الْجور مِن الْأَئِمةِ والْأُمراءِ بعد الْخُلَفَاءِ الراشِدِين والسلَفُ كَانُوا ينْقَـادون

فسقة ظالمين. وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته...قالَ عبادةَ بن الصامِتِ دعانَا رسولُ اللـهِ ﷺ فَبايعنَاه فكَان فِيما أَخَذَ علينَا أَن بايعنَا على السمعِ والطاعةِ فِي منْشَطِنَا ومكْرهِنَا وعسـرِنَا ويسـرِنَا وأَثَرةٍ علينَا وأَن لَا نُنَازِع الْأَمر أَهله قالَ إِلا أَن تَروا كُفْرا بواحا عِنْدكُم مِن اللهِ فِيهِ برهان).[1]

وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق، وأن الإمامة لا تنعقد لكافر، وإذا طرأ عليـه كفـر انعزل، ولا تنعقد لفاسق ابتداء، فلو طرأ على الخليفة فسق قال بعضهم: يجب خلعـه إلا أن تترتـب عليه فتنة وحرب، وقال جماهير أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين: لا ينعـزل بالفسـق والظلم وتعطيل الحقوق، ولا يخلع ولا يجوز الخروج عليه بذلك، بل يجب وعظه وتخويفه؛ للأحاديث الواردة في ذلك وأجاب القاضي عياض على من احتج بخروج عبدا بن الزبير والحسين ، بقوله: وقيل إن هذا الخلاف كان أولاً ثم حصل الإجماع على منع الخروج عليهم.[2] وقال الحافظ ابن حجر: (فإن أحدث جوراً بعد أن كان عدلاً فاختلفوا في جواز الخروج عليه، والصحيح المنـع إلا أن يكفـر فيجب الخروج عليه).[3]

لهذا كان المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتـالهم بالسـيف وإن كانوا ظلمة، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي ﷺ لأن الفساد في قتـالهم أكبر، والفتنة أشد وأعظم من الفساد الحاصل بظلمهم دون قتال ولا فتنة، فيـدفع أعظـم الفسـادين بالتزام أدناهما، ولعله لا يكاد يعرف جماعة خرجت على سلطان إلا وكان في خروجها من الضرر ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته، وا تعالى لم يأمر بقتال كل ظالم وكل باغ كيفما كان ولا أمر بقتال الباغين ابتداء بل قال: ﴿ وإِن طَائِفَتَان مِن الْمؤْمِنِين اقْتَتَلُوا فَأَصلِحوا بينَهما فَإِن بغَتْ إِحداهما علَـى الْأُخْرى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبغِي حتى تَفِيء إِلَى أَمرِ اللهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصلِحوا بينَهما بِالْعدلِ وأَقْسِطُوا إِن الله يحِب الْمقْسِطِين ﴾[الحجرات 9]. فإذا لم يأمر بقتال الباغية ابتداء فكيف يأمر بقتال ولاة الأمر ابتداء. وقال رسول ا ﷺ: (ستَكُون أُمراء فَتَعرِفُون وتُنْكِرون فَمن عرفَ برِئَ ومن أَنْكَر سلِم ولَكِـن مـن رضِي وتَابع قَالُوا أَفَلَا نُقَاتِلُهم قَالَ لَا ما صلَّوا).[4] فرسول ا ﷺ نهى عن قتالهم مع إخباره أنهـم يأتون أموراً منكرة، فدل على أنه لا يجوز الإنكار عليهم بالسيف كما يراه من يقاتل ولاة الأمر مـن

لهم ويقيمون الْجمع والْأَعياد بِإِذْنِهِم ولَا يرون الْخُروج عليهم). حاشية ابن العطار على شرح الجلال المحلي، حسن حسـن بـن محمد بن محمود العطار، 483/2.

[1]- صحيح البخاري كتاب الفتن، باب قول النبي سترون بعدي أموراً تنكرونها (6532)، صحيح مسلم كتاب الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في معصية (3427).

[2]- شرح النووي على صحيح مسلم 12/ 229.

[3]- فتح الباري 8/13.

[4]- مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء، (3445).

الخوارج والزيدية والمعتزلة وطائفة من الفقهاء وغيرهم. وقال رسول ا ﷺ: (ستكون أثرة وأمور تنكرونها قالوا يا رسول الله فما تأمرنا قال تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكـم).[1] فالنبي ﷺ أخبر أن الأمراء يظلمون ويفعلون أموراً منكرة ومع هذا أمرنا أن نؤتيهم الحق الذي لهـم ونسأل ا ﷻ الحق الذي لنا، ولم يأذن في أخذ الحق بالقتال ولم يرخص في ترك الحق الذي لهـم. وأمر رسول ا ﷺ بالصبر على ظلم الحكام ونهى عن الخروج عليهم: (من كره من أميـره شيـئًا فليصبر فإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية).[2] وقال حذيفة ﵁: (كيف أصـنع يـا رسول الله إن أدركت ذلك قال تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطـع).[3] فهذا أمر بالطاعة مع ظلم الأمير.[4]

وأسوتنا في الإصلاح – كما في غيره - الأنبياء عليهم صلوات ا وسلامه؛ حيث لم يقم أي واحـد منهم بثورة لقلب نظام الحكم، أو حاول اغتيال حاكم، أو اغتصاب سلطة؛ لأن التغيير الذي يقوم على القوة، مصيره - ولو طال - إلى الزوال، وسببه أن الإنسان لا يقاد بالحديد والقوة إنما يقاد بفكـره وما يتجه إليه قلبه. كما أن التغيير بالقوة يخالف السنن الإلهية، ولو شاء ا ﷻ لأكره الناس علـى الإيمان، قال ﷻ: ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتـى يكونـوا مؤمنين ﴾[يونس99]. وبين ا ﷻ لرسوله ﷺ أن الأمر لو كان بالقوة لأنزل آية من السماء تجبـر الخلق على اتباع الحق، قال ﷻ: ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين. إن نشأ ننـزل علـيهم مـن السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾[الشعراء 3-4].

وعندما ذهب موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون، لم يحاولا اغتياله مع أنه مارس أشد ألوان التعذيب على بني إسرائيل، بل موسى ﵇ كان مطلوباً لفرعون بدم القبطي، فما كـان منهمـا إلا أن حاوراه: ﴿ فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين...قال فرعـون ومـا رب العـالمين قـال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾[الشعراء 16 23- 24]. ومكث رسول ا ﷺ ثـلاث عشرة سنة في مكة يدعو العرب إلى طاعة الرحمن ونبذ الأوثان، ملاقياً في سبيل ذلـك أذى كثيـراً

---

[1] - البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، (3335). مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفـاء، (3430).

[2] - البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ سترون بعدي أموراً (6530). مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعـة المسلمين، (3438).

[3] - مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين، (3435).

[4] - منهاج السنة النبوية لا بن تيمية 391/3-393. وانظر مقالات الإسلاميين 451/1.

ومعترضاً للعنت الشديد، ومع هذا صبر وتحمل ولم يحاول التغيير بالقوة، بل أمر أصحابه بالصبر، وحضهم على عدم الاستعجال.[1]

والذين منعوا الخروج على الحاكم، أوجبوا الخروج عليه إذا صدر منه كفر صريح، دليله ما يرويه عبادةُ بن الصامِتِ ﷺ قال: (دعانَا النبي ﷺ فبايعنَاه فقالَ فِيما أَخَذَ علينَا أَن بايعنَا علَى السمع والطاعةِ فِي منْشَطِنَا ومكْرهِنَا وعسرنَا ويسرنَا وأَثَرةً علينَا وأَن لَا نُنَازع الْأَمر أَهله إِلَّا أَن تَروا كُفْرا بواحا عِنْدكُم مِن اللهِ فِيهِ برهان).[2]

المبحث الثالث:

آليات الإصلاح:

وصلت الأمة إلى درجة مزرية من الضعف والتخلف، مما حمل بعض أبنائها على القول: أنى يحيي الله ﷻ هذه الأمة بعد كل ما أصابها ؟!. وهذه مقولة المتقاعسين، حالهم كمن يريد ثمراً دون أن يزرع شجراً، أو من يتمنى أن يرزق ولداً دون أن يكون له زوجة. لكن الكثيرين ممن يهتمون بأمر الأمة، ويحزنهم حالها، ويقلقهم ضعفها، ويؤلمهم ذلها، يتساءلون بحيرة: ما سبيل الخلاص ؟ وأين طريق النجاة ؟ وما خطة العمل ؟.

إن أكثر البحوث في العالم الإسلامي – حتى في العلوم التطبيقية – بحوث نظرية، لا تعالج القضايا المعاشة، وإن عالجت، لا تتعرض لآليات التطبيق، فيكون مصيرها إلى رفوف يعلوها الغبار حيث لا ترى النور بعد ذلك. وإن أي عمل يقدم، أو أي جهد يبذل، أو أي مال ينفق، ينبغي أن تكون له نتائج تنفع الأمة وتفيد المجتمع؛ من أجل هذا حاولت تلمس آليات عملية للإصلاح من كتاب الله ﷻ، ومن

---

[1] - عن خَبَابٍ بن الْأَرت ﷺ قَالَ: (شَكَونَا إِلَى رسول اللهِ ﷺ وهو متَوسد بردةً لَه فِي ظِلِّ الْكَعبةِ قُلْنَا لَه أَلَا تَستَنْصِر لَنَا أَلَا تَدعو الله لَنَا قَالَ كَان الرجلُ فِيمن قَبلَكُم يحفَر لَه فِي الْأَرضِ فَيجعلُ فِيهِ فَيجاء بِالْمِنْشَارِ فَيوضع علَى رأْسِهِ فَيشَق بِاثْنَتَين وما يصده ذَلِك عن دِينِهِ ويمشَطُ بِأَمشَاطِ الْحدِيدِ ما دون لَحمِهِ مِن عظْمٍ أَو عصبٍ وما يصده ذَلِك عن دِينِهِ واللهِ لَيتِمن هذَا الْأَمر حتى يسِير الراكِب مِن صنْعاء إِلَى حضرموتَ لَا يخَافُ إِلَّا الله أَو الذِّئْب علَى غَنَمِهِ ولَكِنَّكُم تَستَعجِلُون). صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (3343).

[2]- صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي سترون أموراً بعدي تنكرونها (6532) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية (3427). ومعنى الحديث: لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم، ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكراً محققاً فيه مخالفة لنص صحيح صريح لا يحتمل التأويل، ومقتضاه أنه لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلهم يحتمل التأويل. قَالَ الإمام النووي: الْمراد بِالْكُفْرِ هنَا الْمعصِيةُ، وقَالَ الحافظ ابن حجر:. وقَالَ غَيره: إِذَا كَانَتْ الْمنَازعةُ فِي الْوِلَايةِ فَلَا ينَازعه بِما يقْدح فِي الْوِلَايةِ إلا إِذَا ارتَكَب الْكُفْر، وحملَ – أي الحافظ ابن حجر- روايةَ الْمعصِيةِ علَى ما إِذَا كَانَتْ الْمنَازعةُ فِيما عدا الْوِلَايةِ، فَإِذَا لَم يقْدح فِي الْوِلَايةِ نَازعه فِي الْمعصِيةِ بِأَن ينْكِر علَيهِ بِرِفْقٍ ويتَوصلَ إِلَى تَثْبِيتِ الْحق لَه بِغَيرِ عنْفٍ، ومحل ذَلِك إِذَا كَان قَادِرا، وقَالَ الداودِي: الَّذِي علَيهِ الْعلَماء فِي أُمراءِ الْجورِ أَنه إِن قُدِر علَى خَلْعِهِ بِغَيرِ فِتْنَةٍ ولَا ظُلْمٍ وجب، وإِلَّا فَالْواجِب الصبر. شرح النووي على صحيح مسلم 229/12، فتح الباري8/13، نيل الأوطار للشوكاني 205/7.

أحاديث رسول ا ﷺ، يسهل على كل مسلم تطبيقها. وقبل الخوض في آليات الإصلاح، لا بـد مـن التعرف قبل ذلك إلى المحاور التي تنطلق منها تلك الآليات.

محاور الإصلاح:

بعد أن عرفنا أن الإصلاح من القمة - أي تغيير نظام الحكم بالقوة– لم يجـد نفعـاً عبـر التـاريخ الإسلامي، ولم تجن الأمة منه إلا الخزي والهوان، فضلاً عن مخالفته لروح الدين الإسـلامي، مـع الإجماع على عدم مشروعيته، كما نقله كثير من العلماء؛ لهذا لم يبـق إلا الخيـار الآخـر، وهـو الإصلاح من القاعدة – أي إصلاح الفرد- وهو يقوم على محورين، الأول: تغيير النفس البشـرية، الثاني: تهيئة البيئة الخارجية.

المحور الأول: تغيير النفس.

من سنن ا ﷻ في خلقه أنه لا يغَير الأحوال التي عليها البشر، من النعم إلى النقم، ومن المنح إلى المحن، ومن الخصب إلى الجدب، ومن الرضا إلى العذاب، ومن الحسن إلى السيئ... حتى يغَيروا ما بأنفسهم، قال ﷻ: ﴿إن الله لا يغَير ما بِقومٍ حتى يغَيروا ما بِأَنْفُسِهم ﴾[الرعد 11].[1] وأنزل ا ﷻ عقابه على الأمم السابقة بعد إعراضها عن اتباع دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام.[2]

---

[1]- قال القاضي أبو بكر الباقلاني: (معنى الآية أنه تعالى أنعم عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع وتسهيل السبل والمقصود أن يشتغلوا بالعبادة والشكر ويعدلوا عن الكفر فإذا صرفوا هذه الأحوال إلى الفسق والكفر فقد غيروا نعمة ا تعالى على أنفسهم فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنقم والمنح بالمحن). التفسير الكبير144/15. وقال الفخر الرازي: (كلام جميع المفسرين يدل علـى أن المراد لا يغير ا ﷻ ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد). التفسير الكبير 19/19.

[2]- بعد أن ذكر ا تعالى سبب إهلاكه آل فرعون: ﴿كدأْبِ ءال فِرعون والذِين مِن قبلِهم كفَروا بِآياتِ اللهِ فَأَخذَهم الله بِذُنُوبِهِم ﴾، أعقبه بذكر القاعدة العامة في تغيير الأحوال:﴿ذَلِك بِأَن الله لَم يك مغَيرا نِعمةً أَنْعمها علَى قَومٍ حتى يغَيروا ما بِأَنْفُسِهِم وأَن اللـه سمِيع علِيم﴾. [الأنفال 52-53].قال قتادة: (إنما يجيء التغيير من الناس والتيسير من ا ، فلا تغيروا ما بكم من نعم ا). وقال الحسن: (إن الحجاج عقوبة فلا تستقبلوا عقوبة ا بالسيف ولكن استقبلوها بتوبة وتضرع واستكانة). وقال مالك بن دينار: (كلما أحدثتم ذنباً أحدث ا لكم من سلطانكم عقوبة. وقال أيضاً: قرأت في بعض الكتب إني أنا ا مالك الملوك قلوب الملوك بيدي فلا تشغلوا قلوبكم بسب الملوك وادعوني أعطفهم عليكم). الدر المنثور617/4 - 618. وقال ابن تيمية: (ومن عقوبات الذنوب أنها تزيل النعم وتحل النقم فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب ولا حلت به نقمة إلا بذنب، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (ما نـزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة). وقد قال تعالى: ﴿ وما أَصـابكُم مِـن مصِـيبةٍ فَبِمـا كَسـبتْ أَيـدِيكُم ويعفُـو عـن كَثِير﴾.[الشورى30]. وقال أيضاً: ﴿إن الله لا يغَير ما بِقَومٍ حتى يغَيروا ما بِأَنْفُسِهِم﴾ [الرعد 11]. فأخبر ا تعالى أنه لا يغيـر نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه فيغير طاعة ا بمعصيته، وشكره بكفـره، وأسـباب رضـاه بأسباب سخطه فإذا غير، غير عليه جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد، فإن غير المعصية بالطاعة، غيـر ا عليـه العقوبـة بالعافية، والذل بالعز). الجواب الكافي 49/1. وانظر: بدائع الفوائد432/2.

كما أنه وبالمقابل، لا تتغير الأحوال من النقم إلى النعم، ومن المحن إلى المنح....إلا بعد التوبة عن الذنوب والإنابة إلى ا ﷻ،[(1)] فنقطة البداية في التغيير تبدأ من الشخص ذاته، فكما أن الأحوال تسوء بعد الجحود والكفران، فإنها لا تصلح إلا بعد الإنابة والاستغفار، ودليله قوله ﷻ: ﴿ ولو أن أهلَ القُرى ءامنُوا واتقَوا لفتَحنَا عليهم بركاتٍ مِن السماءِ والأرض ولكِن كذبوا فأَخَذْنَاهم بِما كانُوا يكْسِبون ﴾.[الأعراف 96].[(2)]

فمنطلق الإصلاح - كما دلت عليه الآيات وطبقه رسول ا ﷺ - يبدأ من الشخص نفسه، وإصلاح النفس يبدأ من القلب؛ لأنه بمنزلة الأمير للجسم، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد.[(3)] قال رسول ا ﷺ: (أَلا وإن فِي الجسدِ مضغَةً إذَا صلحتْ صلح الجسد كله وإذَا فسدتْ فسد الجسد كله أَلا وهِي القلْب).[(4)] فالقلب أثره كبير في الإصلاح أو الإفساد.

وللقلب منافذه - وهي الحواس - إلى العالم الخارجي، وهي كما تؤثر في إصلاحه، تؤثر في إفساده،[(5)] وا ﷻ حض على النظر في الكون، وذلك باستخدام الحواس ليقوم العقل بتحليلها والاعتبار منها، قال تعالى: ﴿ أَفلَم يسيروا فِي الأَرض فَتكُون لهم قُلُوب يعقِلُون بِها أَو ءاذَان يسمعون بِها فَإنها لَا تَعمى الأَبصار ولكِن تَعمى القُلُوب التِي فِي الصدور ﴾[الحج46].[(6)] كما أنه لا بد من صيانة تلك المنافذ كي لا تكون سبباً في إفساد القلب، قالَ رسولُ ا ﷺ:(إِن العبد إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً

---

[1] - قال علي بن أبي طالب ﵁: (قال كنت إذا أمسكت عن رسول ا ﷺ ابتدأني وإذا سألته عن الخبر أنبأني وإنه حدثني عن ربه ﷻ قال: قال الرب وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي مامن قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي) قال الحافظ ابن كثير: وهذا غريب، وفي إسناده من لا أعرفه. تفسير القرآن العظيم 505/2.

[2] - قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (يقُولُ الله ﷻ أَنَا عِنْد ظَن عبدِي بِي وأَنَا معه حِين يذْكُرنِي إِن ذَكَرنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرتُه فِي نَفْسِي وإِن ذَكَرنِي فِي ملَإٍ ذَكَرتُه فِي ملَإٍ هم خَير مِنْهم وإِن تَقَرب مِني شِبرا تَقَربتُ إِلَيهِ ذِراعا وإِن تَقَرب إِلَي ذِراعا تَقَربتُ مِنْه باعا وإِن أَتَانِي يمشِي أَتَيتُه هرولَةً). البخاري، كتاب التوحيد، باب ذكر النبي وروايته عن ربه، (6982). مسلم واللفظ له، كتاب الذكر، باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه، (4832).

[3] - فتح الباري، 128/1.

[4] - البخاري، كتاب الإيمان باب من استبرأ لدينه، (50). مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، (2996).

[5] - الحواس هي سبب اقتراف الذنوب، لأنها أداة النقل من العالم الخارجي إلى داخل النفس البشرية؛ حيث يتم التفاعل. فمن أجل صيانة القلب من الفساد، أمر ا ﷻ بحفظ الحواس، من أن تعمل أو تنقل ما حرم ا ﷻ، من ذلك صيانة العقل عما يفسده، وغض البصر عن المحارم، وحفظ اللسان عن الخوض في الأعراض، وكف الأيدي عن البطش.

[6] - قال الفخر الرازي: (المقصود منه ذكر ما يتكامل به ذلك الاعتبار؛ لأن الرؤية لها حظ عظيم في الاعتبار، وكذلك استماع الأخبار فيه مدخل، لكن لا يكمل هذان الأمران إلا بتدبر القلب؛ لأن من عاين وسمع ثم لم يتدبر ولم يعتبر لم ينتفع ألبتة، ولو تفكر فيما سمع لانتفع فلهذا قال: ﴿ لا تَعمى الأَبصار ولَكِن تَعمى القُلُوب التِي فِي الصدور ﴾، كأنه قال لا عمى في أبصارهم فإنهم يرون بها لكن العمى في قلوبهم حيث لم ينتفعوا بما أبصروه). التفسير الكبير، 40/23.

نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سوداء فَإِذَا هو نَزع واستَغْفَر وتَاب سقِلَ قلبه وإن عاد زيد فِيها حتى تَعلُو قلبه وهو الران الذِي ذَكَر الله: ﴿ كلا بلْ ران على قُلُوبِهم ما كانُوا يكْسِبون﴾.[1]

وإذا نظرنا إلى الصحابة، وجدناهم قد تغيرت أحوالهم وتبدلت نفوسهم، حتى غدا كل واحد منهم كأنه خلق جديد.[2] وأكد هذا هرقل عند محاورته لأبي سفيان ﷺ هذا المعنى: (سأَلْتُكَ هلْ يزِيدون أَم ينْقُصون فَزعمتَ أَنهم يزِيدون وكَذَلِك الْإِيمان حتى يتِم وسأَلْتُك هلْ يرتَد أَحد سخْطَةً لِدِينِه بعد أَن يدخُلَ فِيهِ فَزعمتَ أَن لَا وكَذَلِك الْإِيمان حِين تُخَالِطُ بشَاشَتُه الْقُلُوب لَا يسخَطُه أَحد).[3]

المحور الثاني: تهيئة البيئة الخارجية:

إن تربية مخلوق ما، أو تنمية شيء، يحتاج فضلاً عن الرعاية الداخلية، إلى تهيئة البيئة الخارجية والظروف المحيطة، وإعداد الوسط الذي يعيش فيه، وهذا يعلمه علماء الاجتماع والطبيعة والطب والصيدلة... إن المحيط الذي يعيش فيه الشخص يؤثر في سلوكه، فالعادات تتغير، والتقاليد تتبدل، كما أن النبات لا ينمو إلا في ظروف مناسبة له، من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة.[4] وطباع من يسكن الحضر تختلف عن طباع من يسكن البادية وفي الحديث: (من بدا جفا)،[5] ومعلوم أنه حيث يضعف إيمان الشخص يهون عليه تقليد غيره، قال رسول ا ﷺ: (لَتَتبِعن سنَن من قَبلَكُم شِبرا بِشِبرٍ

---

[1] - سنن الترمذي، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المطففين، (3257). وقال: حـدِيثٌ حسـن صـحِيح، المسـتدرك علـى الصحيحين45/1، (6). وأصل الران، الغشاوة وهو كالصدأ على الشيء الصقيل. والآية في الكفار إلا أن المؤمن بارتكاب الذنب يشبههم في اسوداد القلب ويزداد ذلك بازدياد الذنب. قال ابن الملك: هذه الآية مذكورة في حق الكفار لكن الرسـول ﷺ ذكرهـا تخويفاً للمؤمنين كي يحترزوا عن كثرة الذنب فلا تسود قلوبهم كما اسودت قلوب الكفار، ولذا قيل: المعاصي بريد الكفر. تحفـة الأحوذي، 179/9.

[2] - والأمثلة من حياة الصحابة في حبهم الشديد للتضحية بأموالهم وأنفسهم وأولادهم كثيرة جداً، تكاد لا تحصى، فرجل كـافر تعجب من قول من نفذ السهم من أحشائه عندما قال: فزت ورب الكعبة ! والخنساء التي بكت أخاها سنين طويلة، فبعد أن لامس الإيمان شغاف قلبها، قالت عند سماعها نبأ مقتل أبنائها الأربعة: الحمد الذي شرفني باستشهادهم ! وكذلك عنـدما قـال مـاعز لرسول ا ﷺ: طهرني يا رسول ا ، والرسول ﷺ يحاول إرجاعه، قائلاً له: لعلك قبلت، لعلك لامست وهو يصر على البوح بسر لا يعلمه أحد إلا ا ﷻ، مع علمه بالمصير الأليم الذي سيلاقيه نتيجة هذا الاعتراف، ومثله الغامدية، وإرجاع الرسـول ﷺ لها وعدم ملاحقته لها بعد أن كبر ابنها. فمن أجبر ماعزاً والغامدية على الاعتراف، بل الرسول ﷺ صـرفهما ليتراجعـا عـن الاعتراف، فهل لاحقتهما شرطة سرية (داخلية وخارجية)، أم أنهما أتيا إلى الموت وأي موت ؟! إنه أبشع صور الموت برضا وطواعية، ما الذي دفعهما إلى هذا غير الإيمان ؟! بعد قيام العمليات الفدائية ضد الصهاينة المحتلين، واندفاع شـبان صـغار للتضحية بأنفسهم في سبيل ا ﷻ، قال وفد من الجيش الياباني الأحمر نحن نقوم بالعمليات الفدائية لاعتقادنـا بالرجعـة بعـد الموت، وأنتم ما الذي يدفع شبانكم إلى مثل تلك التضحيات ؟!

[3] - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ، (49). مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلـى هرقل، (3332).

[4] - من أجل الحصول على فواكه وخضار في غير مواسمها أو في غير بيئتها الأساسية، يقوم المختصون الزراعيـون بتهيئـة الظروف المناسبة، وهو ما يعرف بالبيوت البلاستكية.

[5] - وتتمة الحديث: (من اتبع الصيد غفل)، تفسير ابن أبي حاتم،/180، ،سنن النسائي، 13/ 68.

وذِراعا بِذِراعٍ حتى لو سلكُوا جحر ضب لسلكْتُموه قُلْنَا يا رسولَ اللهِ الْيهود والنصارى قَـالَ فَمـن ؟).[1] حتى أن الفطرة التي فطر ا ﷻ الخالق عليها تتغير بفعل البيئة، كما بين رسول ا ﷺ: (مـا مِن مولُودٍ إلا يولَد علَى الْفِطْرةِ فَأبواه يهودانِهِ أَو ينَصرانِهِ أَو يمجسانِهِ)؛[2] لذلك أمر رسـول ا ﷺ بتعليم الصغار الصلاة؛ لأنه يعينهم على المواظبة عليها عندما يبلغوا سن التكليف، قَـالَ ﷺ: (مـروا أَولَادكُم بِالصلَاةِ وهم أَبنَاء سبعِ سِنِين واضربوهم علَيها وهـم أَبنَـاء عشْـرٍ وفَرقُـوا بيـنَهم فِـي الْمضاجِعِ).[3] ونجد أن زكريا عليه السلام قد تأثر بالحال التي عاينها عند مريم عليها السلام، فإذا كان ا جل جلاله قادراً على إعطاء الشيء في غير أوانه، فإنه قادر على أن يرزقه ولداً مع كبر سنه مـن زوجتـه العاقر.[4] وقصة إسلام ثُمامةُ بن أُثَالٍ وتأثره ببيئة المسجد مشهورة.[5]ودور البيئة واضح في عون الرجل الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً في التخلص من الطبع الإجرامي والتوبة إلى ا ﷻ.[6]

---

[1] - البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (3197)، مسلم، كتاب العلـم، بـاب اتبـاع سـنن اليهـود والنصارى، (4922).

[2] - البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، (1270). مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، (4802).

[3] - سنن أبي داود كتاب الصلاة، باب باب متَى يؤْمر الْغُلَام بِالصلَاةِ، (418)، المسند، مسند عبدا بن عمـرو بـن العـاص، (4667).

[4] - قال الفخر الرازي: لما رأى زكريا عليه السلام خوارق العادات لمريم عليها السلام، من فاكهة الصيف في الشتاء ومن فاكهة الشتاء في الصيف فلما رأى خوارق العادات عندها طمع في أن يخرقها ا تعالى في حقه أيضا فيرزقه الولد من الزوجة العاقر.التفسير الكبير، 29/8. تفسير الجلالين، ص71.

[5] - قَالَ أَبو هريرةُ رضي الله عنه: (بعثَ النَبِي ﷺ خَيلاً قِبلَ نَجدٍ فَجاءتْ بِرجلٍ مِن بنِي حنِيفَةَ يقَالُ لَه ثُمامةُ بن أُثَالٍ فَربطُوه بِسارِيةٍ مِن سوارِي الْمسجِدِ فَخَرج إِلَيهِ النَبِي ﷺ، فَقَالَ: ما عِنْدك يا ثُمامةُ ؟ فَقَالَ: عِنْدِي خَير يا محمد، إِن تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دمٍ وإِن تُنْعِم تُـنْعِم علَى شَاكِرٍ وإِن كُنْتَ تُرِيد الْمالَ فَسلْ مِنْه ما شِئْتَ فَتُرِك حتى كَان الْغَد ثُم قَالَ لَه: ما عِنْدك يا ثُمامةُ ؟ قَالَ ما قُلْتُ لَك، إِن تُنْعِم تُنْعِم علَى شَاكِرٍ فَتَركَه حتى كَان بعد الْغَدِ، فَقَالَ ما عِنْدك يا ثُمامةُ ؟ فَقَالَ عِنْدِي ما قُلْتُ لَك، فَقَالَ: أَطْلِقُوا ثُمامةَ فَانْطَلَقَ إِلَى نَجلٍ قَرِيبٍ مِن الْمسجِدِ فَاغْتَسلَ ثُم دخَلَ الْمسجِد فَقَالَ أَشْهد أَن لَا إِلَه إِلا الله وأَشْهد أَن محمدا رسولُ اللهِ، يا محمد واللهِ ما كَان علَـى الْأَرضِ وجه أَبغَض إِلَي مِن وجهِك، فَقَد أَصبح وجهك أَحب الْوجوهِ إِلَي، واللهِ ما كَان مِن دِينٍ أَبغَض إِلَي مِن دِينِك فَأَصبح دِينُك أَحب الدين إِلَي، واللهِ ما كَان مِن بلَدٍ أَبغَض إِلَي مِن بلَدِك فَأَصبح بلَدك أَحب الْبِلَادِ إِلَي، وإِن خَيلَك أَخَذَتْنِي وأَنَا أُرِيد الْعمرةَ فَماذَا تَرى ؟ فَبشره رسولُ اللهِ ﷺ وأَمره أَن يعتَمِر فَلَما قَدِم مكةَ قَالَ لَه قَائِلٌ: صبوتَ قَالَ لَا ولَكِن أَسلَمتُ مع محمدٍ رسول اللهِ ﷺ، ولَا واللهِ لَا يأْتِيكُم مِن الْيمامةِ حبةُ حِنْطَةٍ حتى يأْذَن فِيها النَبِي ﷺ).صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة (4024)، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه. (3310).

[6] - عن أَبِي سعِيدٍ الْخُدرِي رضي الله عنه أَن نَبِي اللهِ ﷺ قَالَ: (كَان فِيمن كَان قَبلَكُم رجلٌ قَتَلَ تِسعةً وتِسعِين نَفْسا فَسأَلَ عـن أَعلَـمِ أَهـل الْأَرضِ فَدل علَى راهِبٍ فَأَتَاه فَقَالَ إِنه قَتَلَ تِسعةً وتِسعِين نَفْسا فَهلْ لَه مِن تَوبةٍ فَقَالَ لَا فَقَتَلَه فَكَملَ بِهِ مِئَةً ثُم سأَلَ عن أَعلَمِ أَهـل الْأَرضِ فَدل علَى رجلٍ عالِمٍ فَقَالَ إِنه قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ فَهلْ لَه مِن تَوبةٍ فَقَالَ نَعم ومن يحولُ بينَه وبين التوبةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرضِ كَـذَا وكَذَا فَإِن بِها أُنَاسا يعبدون الله فَاعبد الله معهم ولَا تَرجِع إِلَى أَرضِك فَإِنها أَرض سوءٍ فَانْطَلَقَ حتى إِذَا نَصـفَ الطرِيـقَ أَتَـاه الْموتُ فَاخْتَصمتْ فِيهِ ملَائِكَةُ الرحمةِ وملَائِكَةُ الْعذَابِ فَقَالَتْ ملَائِكَةُ الرحمةِ جاء تَائِبا مقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ وقَالَتْ ملَائِكَةُ الْعذَابِ إِنه لَم يعملْ خَيرا قَط فَأَتَاهم ملَك فِي صورةِ آدمِي فَجعلُوه بينَهم فَقَالَ قِيسوا ما بين الْأَرضين فَإِلَى أَيتِهما كَان أَدنَى فَهو لَـه فَقَاسـوه فَوجدوه أَدنَى إِلَى الْأَرضِ الَتِي أَراد فَقَبضتْه ملَائِكَةُ الرحمةِ قَالَ قَتَادةُ فَقَالَ الْحسن ذُكِر لَنَا أَنه لَما أَتَاه الْموتُ نَأَى بِصدرِهِ). متفق عليه واللفظ لمسلم، صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث الغار (3211)، صحيح مسلم كتاب التوبة، قبول توبة القاتـل وإن كثر قتله، (4967).

آليات التغيير:

أكثر البحوث تقتصر في معالجتها للقضايا على التنظير الفكري، دون التعرض للخطـوات العمليـة التي يمكن من خلالها الوصول إلى النتائج المرجوة. فبعد أن عرفنا أن التغيير يقوم على محـورين أساسيين، تغيير النفس البشرية، وتهيئة البيئة الخارجية، لا بد من بيان الخطوات العملية التي ينبغي تطبيقها للوصول إلى الهدف المنشود، وهذه الخطوات هي آليات تغيير النفس، وآليات تهيئة البيئـة الخارجية.

آليات تغيير النفس:

منطلق تغيير النفس يبدأ من القلب؛ لأنه بمنزلة الوعاء الذي ينضح ما فيه، فإن تعرض لما يفسـده، لم يقد صاحبه إلا إلى الفساد، وإن تعرض لما يصلحه، قاده إلى الصلاح. وفيما يأتي أهم خطـوات تغيير النفس البشرية، مأخوذة من كتاب ا ﷻ وسنة رسوله ﷺ، وهي خطوات عملية يسـتطيع أي شخص تطبيقها؛ ليجد بعد ذلك أن حاله قد بدأت تصلح.

- ترسيخ الإيمان با ﷻ:

مشكلة الإنسان المسلم تتمثل في ضعف إيمانه ونقص يقينه با ﷻ، والضعف أو الـنقص، أمـر لا تعلق له بالمعرفة الذهنية، فكل المسلمين، مسلمون بحاكمية ا ﷻ لهذا الكون وأنه المتصرف فيه، لا يشاركه فيه أحد من خلقه، إلا أن هذا التسليم مكانه العقل،[1] أما القلب ففيه أشياء أخـرى، مـن تعظيم الدنيا، وحب الشهوات، والبحث عن المكانة...كما أنه مملوء خوفاً من الخلق، مع الاسـتهانة بأوامر الخالق ﷻ.[2]

عظمة الأمر من عظمة الآمر ﷻ:

إن الاستهانة بأوامر الدين ناتجة عن عدم الشعور بعظمة ا ﷻ، فمن عرف مكانة الآمر، عظّم في قلبه الأمر وأسرع إلى الالتزام به، ومن لم يشعر بعظمة الآمر، استهان بالأوامر.[3] إن من استشعر

---

[1] - إن مشكلة الأمة ليست في عدم إيمانها بوحدانية ا ﷻ، فكل المسلمين يعرفون ويقرون بوحدانيته ﷻ، والشيطان أكثر مـن يعرف عظمة ا ﷻ وقدرته، إلا أن الكبر منعه من امتثال الأمر فاستحق اللعنة، إنما مشكلتها تتمثل بضعف اليقين على ا ﷻ.

[2] - قال تعالى: ﴿ وما قَدروا الله حق قَدرِهِ والْأرض جمِيعا قَبضتُه يوم الْقِيامةِ والسماواتُ مطْوِياتٌ بِيمِينِهِ سبحانَه وتَعـالَى عمـا يشْرِكُون ﴾. [الزمر67].

[3] - هل تتساوى عند شخص أهمية خطاب جاءه من موظف صغير مع ما جاءه من الوالي، وهل مثوله بين يدي الحاكم العـام كمثوله بين يدي شرطي ؟.

عظمة ا ﷻ في قلبه، لن يخالف له أمراً، أو يأتي منهياً، فاقتراف الآثام إنما يتم في لحظات نقص الإيمان، حيث يضعف العمل، فينتج عنه نقص في الإيمان، والعكس صحيح.

ولاستشعار عظمة الخالق ﷻ، ينبغي معرفة الحقيقة الكبرى، وهي أن كل ما في الكـون، كمـا هـو مفتقر إلى ا ﷻ في الإيجاد، مفتقر إليه في البقاء،[1] والإنسان أشد افتقاراً وأكثر احتياجاً من غيره إلى رحمة ا ﷻ وعنايته، كما أنه أتى الدنيا من غير إرادته، لا يدري متى يغادرها إلى غير رجعة. فمن عرف قدر نفسه، وقف عند حده، وإلا عاش مع الأوهام، وحلق مع الأحلام.

وإن كل ما في الكون، في قبضة الخالق ﷻ، وهو المتصرف في شؤونه، قال ﷻ: ﴿ وما تَسقُطُ مِـن ورقَةٍ إِلا يعلمها ولا حبةٍ فِي ظُلُماتِ الأَرضِ ولا رطْبٍ ولا يابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مبِينٍ ﴾[الأنعـام 59]، كما أنه لا يعزب عن علمه شيء: ﴿ عالِمِ الْغَيبِ لا يعزب عنْه مِثْقَالُ ذَرةٍ فِي السمواتِ ولا فِي الأَرضِ ولا أَصغَر مِن ذَلِك ولا أَكْبر إِلا فِي كِتَابٍ مبِينٍ ﴾.[سبأ 3].

ومما يزيد الإيمان ويرسخ اليقين، معرفة الإنسان نفسه.

نتيجة جهل الإنسان بحقيقة نفسه – لاعتبارات عديدة لا يتسع المقام لذكرها – طغى كثير من الناس، فمنهم من أنكر البعث والنشور،[2] ومنهم من تجاوز كل الحدود، فادعى الربوبية.[3]

وكي يعرف الإنسان حقيقة أمره، بين القرآن الكريم منشأ الإنسان ومراحل خلقه، حيث يتابع بعد ذلك سيره إلى القبر ثم البعث والنشور، وضرب ا ﷻ مثلاً للحياة بعد الموت بدورة حياة النبات، فهـي تشبه دورة حياة الإنسان، قال ﷻ: ﴿ ياأَيها الناس إِن كُنْتُم فِي ريبٍ مِن الْبعثِ فَإِنا خَلَقْنَاكُم مِن تُرابٍ ثُم مِن نُطْفَةٍ ثُم مِن علَقَةٍ ثُم مِن مضغَةٍ مخَلَّقَةٍ وغَيرِ مخَلَّقَةٍ لِنُبين لَكُم ونُقِر فِي الأَرحامِ ما نَشَاء إِلَى أَجلٍ مسمى ثُم نُخْرِجكُم طِفْلًا ثُم لِتَبلُغُوا أَشُدكُم ومِنْكُم من يتَوفَّى ومِنْكُم من يرد إِلَى أَرذَلِ الْعمرِ لِكَيلـا

---

[1] - قال شقيق بن عبدا أنه لا بد للإنسان من معرفة أربعة أمور: أحدها: معرفة ا ، والثاني: معرفة نفسه، والثالث: معرفـة أمر ا ونهيه، والرابع: معرفة عدو ا وعدو نفسه، وتفسير معرفة ا : أن تعرف بقلبك أن لا معطي ولا مـانع ولا نـافع ولا ضار غيره، وأما معرفة النفس: فأن تعرف نفسك أنك لا تضر ولا تنفع، وأما معرفة أمر ا ونهيه: فأن تعلم أمر ا عليك وأن رزقك عليه، وأن تكون واثقاً بالرزق مخلصاً في العمل، وأما معرفة عدو ا : فأن تعلم أن لك عدواً لا يقبل ا منـك شـيئاً إلا بمحاربته. حلية الأولياء،46/10.

[2] - قال ﷻ: ﴿ ودخَلَ جنتَه وهو ظَالِم لِنَفْسِهِ قَالَ ما أَظُن أَن تَبِيد هذِهِ أَبدا ﴾[الكهف 35]. وقال ﷻ:﴿ وقَالُوا ما هِي إِلـا حياتُنَـا الدنْيا نَموتُ ونَحيا وما يهلِكُنَا إِلا الدهر وما لَهم بِذَلِك مِن عِلْمٍ إِن هم إِلا يظُنون ﴾[الجاثية 24].

[3] - قال ﷻ على لسان فرعون: ﴿ فَحشَر فَنَادى فَقَالَ أَنَا ربكُم الْأَعلَى ﴾[النازعات23- 24]. وقال الذِي حاج إِبراهِيم فِي ربـهِ: ﴿أَنَا أُحيِي وأُمِيتُ﴾.[البقرة 258].

يعلم مِن بعدِ عِلْمٍ شَيْئًا وتَرى الْأَرض هامِدةً فَإِذَا أَنْزلْنَا عليها الْماء اهتَزتْ وربتْ وأَنْبتَتْ مِن كُلِ زوجٍ بهيجٍ﴾[الحج 5].[1]

وويخ القرآن الكريم المشركين على كفرانهم النعم، مع علمهم بأصل خلقهم المهيمن، وشدة ضعفهم، وغاية احتياجهم، للعناية الربانية، قال ﷻ: ﴿ قُتِلَ الْإِنْسان ما أَكْفَره ﴾[عبس 17].[2] فالبيان الإلهـي جاء شديد اللهجة على كل من كفر با ﷻ، حيث بدأ بالدعاء بالقتل، وهو من أشنع الـدعوات؛ لأن القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها، والتعجب[3] من إفراطه في كفران نعمة ا ﷻ، وتوبيخه علـى سلوكه طريق الكفر،[4] فما الذي حمله على هذا ؟ والأدلة واضحة والبراهين ساطعة –كما جاءت في سياق السورة – حيث جاء وصف حال الإنسان من ابتداء حدوثه إلى أن ينتهي، فأوله نطفـة قـذوة وآخره جيفة مذرة وهو بين ذلك يحمل العذرة، ومع أن نعم ا ﷻ تغمره من كل جانب، فهو غارق في الكفران والغمط وقلة الالتفات إلى ما يتقلب فيه من النعم وإلى ما يجب عليه من القيام بالشكر.[5]

---

[1] - وقال ﷻ: ﴿ ولَقَد خَلَقْنَا الْإِنْسان مِن سلَالَةٍ مِن طِينٍ. ثُم جعلْنَاه نُطْفَةً فِي قَرارٍ مكِينٍ. ثُم خَلَقْنَا النطْفَةَ علَقَةً فَخَلَقْنَا الْعلَقَةَ مضغَةً فَخَلَقْنَا الْمضغَةَ عِظَاما فَكَسونَا الْعِظَام لَحما ثُم أَنْشأْنَاه خَلْقًا ءاخَر فَتَبارك الله أَحسن الْخَالِقِين ﴾ [المؤمنون 12-14]. روي عـن علي ﷺ أنه قال: يا عجباً كل العجب من الشاك في ا وهو يرى خلقه، وعجباً ممن يعرف النشأة الأولى ثم ينكر النشأة الآخرة، وعجباً ممن ينكر البعث والنشور وهو في كل يوم وليلة يموت ويحيا - يعني النوم واليقظة - وعجباً ممن يؤمن بالجنة وما فيها من النعيم ثم يسعى لدار الغرور، وعجباً من المتكبر الفخور وهو يعلم أن أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة. التفسـير الكبيـر 31/2.

[2] - نزلت الآية في عتبة بن أبي لهب، وقيل، المراد بالإنسان: الذين أقبل الرسول ﷺ عليهم وترك ابن أم مكتوم بسببهم، وقـال بعضهم: بل المراد ذم كل غني ترفع على فقير بسبب الغنى والفقر، والذي يدل على ذلك وجوه، أحدها: أنه تعالى ذمهم لترفعهم فوجب أن يعم الحكم بسبب عموم العلة، وثانيها: أنه تعالى زيف طريقتهم بسبب حقارة حال الإنسان في الابتداء والانتهاء على ما قال: (من نطفة خلقه ثم أماته فأقبره) [عبس 21-19]، وعموم هذا الزجر يقتضي عموم الحكم، وثالثها: وهو أن حمل اللفـظ على هذا الوجه أكثر فائدة واللفظ محتمل له فوجب حمله عليه. التفسير الكبير، الرازي، 55/31.

[3] - قد يقال: إن الدعاء على الغير إنما يليق بالعاجز، والقادر على الكل كيف يليق به ذاك ؟ والتعجب أيضاً إنما يليق بالجاهـل بسبب الشيء، فالعالم بالكل كيف يليق به ذاك ؟ الجواب: أن ذلك ورد على أسلوب كلام العرب. التفسير الكبير، 55/31.

[4] - تفسير الجلالين ص792.

[5] - الكشاف، الزمخشري703/4. وا ﷻ ذكر المراحل التي يمر بها الإنسان، أما المرحلة الأولى، قوله تعالى: (من أى شىء خلقه)، وهو استفهام الغرض منه زيادة التقرير في التحقير، ومن كان أصله من مثل هذا الشيء الحقير فـالنكير والتجبـر لا يكون لائقاً به، ثم قال فقدره، أي قدره أطوراً، نطفة ثم علقة إلى آخر خلقه، وأما المرحلة الثانية: وهي المرحلة المتوسطة فهـي قوله تعالى: (ثم السبيل يسره)، أي سهل خروجه من بطن أمه، لأن رأس المولود يكون في بطن أمه إلى أعلى، ورجلاه إلى أسفل، وإذا جاء وقت الخروج انقلب، فمن الذي أعطاه ذلك الإلهام إلا ا ؟! ومما يؤكد هذا التأويل أن خروجه حياً مـن ذلـك المنفذ الضيق من أعجب العجائب.

وأما المرحلة الثالثة وهي الأخيرة، فهي قوله تعالى: (ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره)، وهذه المرحلة مشـتملة علـى ثـلاث مراتب، الإماتة، والإقبار والإنشار. أما الإماتة فهي الواسطة بين حال التكليف والمجازاة، وأما الإقبار: فقال الفـراء: جعلـه ا مقبوراً ولم يجعله ممن يلقى للطير والسباع؛ لأن القبر مما أكرم به المسلم، أما قوله: (ثم إذا شاء أنشره)المراد منـه الإحيـاء والبعث وإنما قال إذا شاء إشعارا بأن وقته غير معلوم لنا فتقديمه وتأخيره موكول إلى مشيئة ا تعالى وأمـا سـائر الأحـوال المذكورة قبل ذلك فإنه يعلم أوقاتها من بعض الوجوه إلا الموت وإن لم يعلم الإنسان وقته ففي الجملة يعلم أنه لا يتجاوز فيه حداً معيناً. التفسير الكبير، 31/55-56.

- التفكر في آيات ا ﷻ:

القرآن الكريم كتاب ا ﷻ المقروء، والكون كتابه المنظور، وا ﷻ أودع في الكون من الحجج والبراهين ما يصلح أن يكون علاجاً لعجب الجاحدين، وشفاء لكفر المشركين، فإن خِلقة الإنسان تصلح لأن يستدل بها على وجود الصانع؛ ولأن يستدل بها على القول بالبعث والحشر والنشر.[1] والقرآن الكريم حض على استخدام الملكات التي وهبها ا ﷻ للإنسان، حيث يمكن من خلالها معرفة قدرة ا ﷻ ومقدار عظمته: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءاذَان يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.[2] [الحج 46]، فما رآه الإنسان أو سمعه لا ينتفع به إن لم ينظر إليه بعين التدبر، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ [الذاريات 21].

- إقامة الأعمال وتأديتها على الوجه الأكمل:

مع التفكر في النفس والكون، يحصل التصديق، والتصديق شق الإيمان، وشقه الآخر العمل، فالإيمان قول وعمل، وصلاح الأحوال لا يتم إلا بصلاح الأعمال، فمن صلحت أعماله صلحت أحواله؛ لأن الأعمال تقوم على المراقبة، ومن راقب ا ﷻ في أعماله، شعر بمراقبته له في سائر شؤونه، والأعمال تتطلب جهداً، والجهد ينتج عنه توفيق وهداية من ا ﷻ؛ حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت69]. ومن عبد ا ﷻ حق العبادة أصلح ا ﷻ له أحواله، إذ قال:﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل 97] وبالمقابل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[طه 124].

وأعظم الأعمال وأعلاها الصلاة، لذلك أفردت بالذكر – دون الأعمال الأخرى - في كثير من المواضع؛ لكونها عماد الدين والفارقة بين الكفر والإيمان،[3] قال رسول ا ﷺ: (رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ).[1]

---

[1] - التفسير الكبير، 55/31. وا ﷻ ذكر نوعين من الدلائل، فبعد أن ذكر الدلائل من الأنفس أعقبه بذكر الدلائل من الآفاق، وبدأ بما يحتاج الإنسان إليه، فقال: فلينظر إلى طعامه الذي يعيش به كيف دبرنا أمره، ولا شك أن دورة خلق النبات، موضع للاعتبار. التفسير الكبير، 31 /56.

[2] - قال الفخر الرازي: (المقصود منه ذكر ما يتكامل به ذلك الاعتبار لأن الرؤية لها حظ عظيم في الاعتبار وكذلك استماع الأخبار فيه مدخل ولكن لا يكمل هذان الأمران إلا بتدبر القلب؛ لأن من عاين وسمع ثم لم يتدبر ولم يعتبر لم ينتفع ألبتة ولو تفكر فيما سمع لانتفع فلهذا قال: ﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، كأنه قال لا عمى في أبصارهم فإنهم يرون بها لكن العمى في قلوبهم حيث لم ينتفعوا بما أبصروه). التفسير الكبير، 40/23.

[3] - الكشاف، 165/2.

وقال ﷺ: ﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ [الأعراف 170]. والصلاة من أعظم القربات وأشرف الأعمال؛ لأنه يتجلى فيها مظهر العبودية الخالص ﷺ، كما أنها ميزان الأعمال، إذا صلحت، صلحت جميع الأعمال، والعكس صحيح، ومن أقامها سهل عليه القيام بغيرها.[2] وللصلاة شكل ومضمون، وصورة وحقيقة، أما الشكل والصورة فهي حركات الصلاة ورسومها، وحتى يصل العبد إلى الحقيقة، ينبغي إقامتها بخشوع القلب وخضوع الجوارح، لتصبح جزءاً من كيان المصلي وروحه، ينتظرها بشوق، ويقبل عليها برغبة، ولسان حاله ناطق بقول رسول ا ﷺ: (يا بلالُ أقِم الصلاةَ أرحنَا بِها)،[3] وقوله ﷺ: (وجعلت قرة عيني في الصلاة).[4] والصلاة تقرب إلى ا ﷻ؛ لأنها تقوم على الذكر وقراءة القرآن، قال ﷺ: ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾[طه14].[5] والصلاة حوار ومناجاة بين العبد وربه كما في الحديث القدسي: (قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل).[6]

وقال ﷺ: ﴿قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾[المؤمنون 1-2]، والخشوع محله القلب، فإذا خشع خشعت الجوارح كلها لخشوعه، إذ هو ملكها.[7] والرسول ﷺ لما رأى رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة، قال: (لو خشع قلبه لخشعت جوارحه).[8] وقال ﷺ: (إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يمسح الحصى فإن الرحمة تُواجهه).[9]

---

[1] - هذا جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، (2541)، قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسن صحيح.

[2] - تفسير السعدي 308/1.

[3] - سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب صلاة العتمة، (4333).

[4] - هذا جزء من حديث، تمامه: (حبب إلي النساء والطيب، وجعلت...)، المستدرك على الصحيحين، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه،174/2، (2676).

[5] - قال مجاهد: (أي أقم الصلاة لتذكرني بها). تفسير البغوي213/3.

[6]- وتتمة الحديث: (فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى حمدني عبدي وإذا قال الرحمن الرحيم قال الله تعالى أثنى علي عبدي وإذا قال مالك يوم الدين قال مجدني عبدي وقال مرةً فوض إلي عبدي فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل). مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، (598). الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الفاتحة، (2877).

[7]- تفسير القرطبي 12/ 103.

[8] - نوادر الأصول في أحاديث الرسول 210/3.

[9] - سنن الترمذي، وقال حديثٌ حسنٌ، كتاب الصلاة، باب ما جاء في كراهية مسح الحصى في الصلاة، (346). وقال الشاعر:

ألا في الصلاة الخير والفضل أجمع لأن بها الآراب تخضع
وأول فرض من شريعة ديننا وآخر ما يبقى إذا الدين يرفع
فمن قام للتكبير لاقته رحمة وكان كعبد باب مولاه يقرع

إن من يستشعر مراقبة ا ﷻ خمس مرات في اليوم والليلة، كانت النتيجة: ﴿ إن الصلاةَ تَنْهى عن الْفَحشَاءِ والْمنْكَرَ﴾[العكنبوت 45]. عندئذٍ: لا غش ولا سرقة ولا اعتداء ولا تهاون....أما من كانـت صلاته مجرد حركات ليس فيها مراقبة ﷻ، فهو واقف على شاطئ الدين،[1] بعيد عـن حقيقتـه، ليس فيه إلا صورته، قال رسول ا ﷺ: (لَا يؤْمِن أَحدكُم حتى يحِب لِأَخِيهِ ما يحِب لِنَفْسِهِ).[2]

وفي مواضع كثيرة قرن القرآن الكريم بين الصلاة والزكاة، الصلاة؛ لما تشتمله من مراقبة ومناجاة ﷻ، والزكاة لما فيه من تطهير للنفس من الشح والأنانية.[3] قال ﷻ: ﴿ تِلْك ءاياتُ الْكِتَابِ الْحكِيمِ هدى ورحمةً لِلْمحسِنِين الَّذِين يقِيمون الصلَاةَ ويؤْتُون الزكَاةَ وهم بِالْآخِرةِ هم يوقِنُون أُولَئِـك علَـى هدى مِن ربهِم وأُولَئِك هم الْمفْلِحون ﴾ [لقمان 2-5].[4]

- ذكر ا ﷻ.[5]

يكثر الإنسان من ذكر شيء، لأمور عدة، منها: الجمال والجلال، أو الخوف والرهبـة، أو الإنعـام والإحسان. أما بالنسبة للجمال والجلال، فا ﷻ يتصف بكل معاني الجمال، وله الكمال المطلق، وهو خالق الجمال، ولا يبلغ الكمال غيره، والجمال والكمال يعطيان الجلال والمهابة، فمن هذا الاعتبـار، ا ﷻ أحق من يعبد وأولى من يذكر.

وصار لرب العرش حين صلاته نجيا فيا طوباه لو كان يخشع

تفسير القرطبي 104/12.

[1]- قال ابن عباس ﷺ: قال رسول ا ﷺ (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من ا إلا بعداً). معجم الطبراني الكبير، 54/11، (11025)، قال الهيثمي: وفيه ليث بن أبي سليم، وهو ثقة ولكنه مدلس، وقال عبدا بن مسعود ﷺ: (من لـم تأمره صلاته بالمعروف وتنهاه عن المنكر لم يزدد من ا إلا بعداً)، معجم الطبراني الكبير 103/9، (8543)، قال الهيثمـي: ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد، باب فيمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء، 258/2.

[2]- صحيح البخاري، كاتب الإيمان، باب مِن الْإِيمان أَن يحِب لِأَخِيهِ ما يحِب لِنَفْسِهِ 14/1(12)، مسلم كتاب الإيمان، الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه،68/1، (64). وأنزل ا ﷻ قي الأنصار: ﴿ والَّذِين تَبوءوا الدار والْإِيمـان مِـن قَـبلِهِم يحِبون من هاجر إِلَيهِم ولَا يجِدون فِي صدورِهِم حاجةً مِما أُوتُوا ويؤْثِرون علَى أَنْفُسِهِم ولَو كَان بِهِم خَصاصـةٌ ﴾[الحشـر 9]. وقال رسول ا ﷺ: فيما رواه أبو هريرةَ ﷺ: (لَا يمنَع جار جاره أَن يغْرِز خَشَبه فِي جِدارِهِ ثُم يقُولُ أَبو هريرةَ ما لِي أَراكُـم عنْها معرِضِين واللهِ لَأَرمِين بِها بين أَكْتَافِكُم). البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب لَا يمنَع جار جاره أَن يغْرِز خَشَبه فِـي جِدارِهِ، (283)، مسلم، كتاب المساقاة، باب غرز الخشب في جدار الجدار، (3019).

[3]- تفسير السعدي 646/1.

[4]- أفردت الصلاة بالذكر في أكثر المواضع؛ لأنها عبادة خالصة تعالى،كما أنها لا تسقط عن المكلـف فـي أي حـال مـن الأحوال، وهي أول ما يحاسب عليه العبد، وهي عبادة فيها غاية التذلل لخالق الخلق ﷻ، والمداومة عليها تجعل العبد مستشعراً مراقبة ا ﷻ له في كل خطوة يخطوها، وعند كل خطرة من خطرات نفسه.

[5]- قد ينظر إلى الذكر على أنه من عمل عوام الناس، وهذا جهل مطبق، فسيد الذاكرين رسول ا والآيات والأحاديث كثير في فضل الذكر كثيرة.

أما الخوف والرهبة، فإن الإنسان يكثر من ذكر الشيء إذا كان يخشى سطوته، أو يخاف نقمتـه،[1] وا ﷻ أحق من يخاف وأولى من يرهب، فهو المحيي والمميت، ومرسل النقم ومبيد النعم ومنـزل البلايا... وهو القاهر فوق عباده؛ يرسل عليهم من لا تغلق دونه الأبواب، فلا يستطيعون لـه رداً، ولا يجدون له دفعاً، فيحل مما ليس منه بد، وما ليس له عند الحبيب شفاء، أو عند الطبيـب دواء، فهل أحد أحق بأن يخاف منه، غير ا تعالى ؟.

كما أنه يلهج لسان الإنسان بذكر من أنعم عليه أو أحسن إليه، وآلاء ا ﷻ محيطة بالمخلوق مـن كل جانب، يتفيأ ظلالها ويرفل في نعيمها: ﴿ وما بِكُم مِن نِعمةٍ فَمِن اللهِ﴾[النحل 53]، ﴿ وإِن تَعـدوا نِعمةَ اللهِ لا تُحصوها﴾ [إبراهيم 34]. بل سخر الكون وما فيه للإنسان: ﴿وسخر لكُم ما فِي السمواتِ وما فِي الأَرضِ جمِيعا مِنْه﴾. [الجاثية 13]. فمن هذا الاعتبار، ا ﷻ أحق من يشكر وأولى مـن يذكر؛ لأنه المنعم على خلقه، والمتفضل على عباده.[2]

إن الإكثار من ذكر شيء دليل على المحبة، وبرهان على صدق الشعور بالعرفان، ومن أكثر من ذكر شيء وقعت محبته في قلبه؛[3] لذلك حض القرآن الكريم على الذكر: ﴿واذْكُروا اللـه كَثِيـرا لعلكُـم تُفْلِحون﴾[الأنفال 45]. كما أثنى على الذاكرين: ﴿ والذاكِرِين الله كَثِيرا والذاكِراتِ أَعـد اللـه لهـم مغْفِرةً وأَجرا عظِيما ﴾[الأحزاب 35].

والذكر يجدد الإيمان ويقوي اليقين؛ لأنه يذَكِر بعظمة ا ﷻ ويزيد المراقبة، قال رسـول ا ﷺ: (جددوا إيمانكم، قيل: يا رسول ا وكيف نجدد إيماننا ؟ قال: أكثروا من قول لا إله إلا ا).[4] وقال ﷺ: (إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا ا أن يجدد الإيمان في قلوبكم).[5] ولاستحضار معية ا ﷻ واستشعار عظمته، وكي تكون جميع الأعمال عبادة يؤجر عليهـا العبـد، أرشد رسول ا ﷺ إلى الإتيان بأذكار تقال عند كل عمل من الأعمال، بدءاً من آداب قضاء الحاجـة وشكر المولى ﷻ على خلاصه من الأذى، إلى ذكره ﷻ عند ذروة الشهوة، فـي أثنـاء اسـتمتاعه

---

1 - كما هو الحال في العصر الحاضر، فأمريكيا على كل لسان، و المثل الأعلى.

2 - عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ، قال: قال ا ﷻ: (إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري). شعب الإيمان 134/4، (4563). مسند الشاميين 93/2.

3- من صور الخطأ في التربية، تكرار ذكر منافع الأشياء المادية أمام الأبناء، وعدم تذكيرهم بقـدرة ا ﷻ وعمـيم نعمـه، فينشأوا على حب الدنيا وعبودية المال، وتعظيم الأشخاص، وتقديس الجاه...

4 - المستدرك على الصحيحين وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، 285/4، (7657).

5 - المستدرك 45/1، (5). قال الحاكم: ورواته ثقات، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن، مجمع الزوائـد، باب تجديد الإيمان 52/1. قال المناوي: شبه الإيمان بالشيء الذي لا يستمر على هيئته والعبد يتكلم بكلمة الإيمان ثـم يدنسـها بسوء أفعاله فإذا عاد واعتذر فقد جدد ما أخلق وطهر ما دنس فاسألوا ا تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم حتى لا يكون لقلوبكم وجهة لغيره ولا رغبة لسواه ولهذا قال معاذ لبعض صحبه: اجلس بنا نؤمن أي نذكره ذكرا يملأ قلوبنا. فيض القدير. 324/2.

بزوجته، غير ناس طلبه من ا ﷻ أن يجنبه وما سيرزقه من الشيطان، كما يذكر ربه عند طعامه وشرابه، ليكون عبادة يثاب عليها، وليس مجرد استمتاع، وعند نومه يعلن إسـلامه وجهـه ﷻ، حيث تفارق روحه جسده، وإذا استيقظ حمد ربه على أن أحياه بعد أن أماته، وإذا دخـل البيـت أو خرج منه، ذكر ربه، ليعصمه من الشيطان وحزبه. والذكر غراس الجنة كما أخبر خليل الرحمن ﷺ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (لَقِيتُ إبراهِيم ليلةَ أُسرِي بِي فقالَ يا محمد أَقْرِئْ أُمتَكَ مِني السلام وَأَخْبِـرهم أَن الْجنةَ طَيبةُ التربةِ عذْبةُ الْماءِ وأَنها قِيعان وأَن غِراسها سبحان اللهِ والحمد لِلهِ ولا إِله إِلا الله والله أَكْبر).[1]

وأعلى الذكر وأشرفه تلاوة كتاب ا ﷻ آناء الليل وأطراف النهار، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:(إن أهلين من الناس، قالوا من هم يا رسول ا ؟ قال: أهل القرآن هم أهل ا وخاصته).[2] وقال أيضاً: (إِن الَّذِي لَيس فِي جوفِهِ شَيء مِن الْقُرآن كَالْبيتِ الْخَرِبِ).[3] كما قال ﷺ: (من قام بِعشْرِ آياتٍ لم يكْتَب مِن الْغَافِلِين ومن قام بِمِائَةِ آيةٍ كُتِب مِن الْقَانِتِين ومن قام بِأَلْفِ آيةٍ كُتِب مِن الْمقَنْطِرِين).[4]

آليات تهيئة البيئة الخارجية:

حتى تكتمل عناصر التغيير، ويؤتي الإصلاح ثماره، لا بد من إعـداد بيئـة صـالحة، تُسـهل علـى الصالحين التمسك بصلاحهم، وتعين الفاسدين على الإقلاع عن غيهم، وإلا ما جادت به الأمطار ذهبت به الرياح، وما أشيد في النهار هدم في الليل، وما قيل في ساعة صفاء، محي في ساعة غفلة.

إن أول ظرف خارجي يلاقيه الشخص عند قدومه إلى الدنيا الأسرة، وعمادها الأبوان، والأم أخصهما، وهي أقربهما، فحضنها له وهاد، وثديها له سقاء، وحنانها له شفاء، وعطفهـا عليـه دواء، والأب، المثل والقدوة، وجالب النعم، ودافع العدوان، والولد ابن أبويه، يسير على هديهما، ويتأثر بطريقتهما،

---

[1] - الترمذي، وقال: حسن غَرِيب مِن هذَا الْوجهِ مِن حدِيثِ ابن مسعودٍ، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، (3384).

[2] - المستدرك 743/1، (2046).

[3] - سنن الترمذي، وقال: حسن صحِيح، كتاب فضائل القرآن، باب فيمن قرأ حرفاً من القرآن، (2837). وقالَ رسـول ا ﷺ: (إن هذَا الْقُرآن مأْدبةُ اللهِ فَتَعلموا مِن مأْدبتِهِ ما استَطَعتُم إِن هذَا الْقُرآن حبلُ اللهِ والنور الْمبِين والشفَاء النافِع عِصمةٌ لِمن تَمسك بِهِ ونَجاةٌ لِمن اتبعه لَا يزِيغُ فَيستَعتِب ولَا يعوج فَيقَوم ولَا تَنْقَضِي عجائِبه ولَا يخْلَقُ عن كَثْرةِ الرد فَاتْلُوه فَإِن الله يـأْجركُم علـى تِلَاوتِهِ بِكُل حرفٍ عشْر حسنَاتٍ أَما إِني لَا أَقُولُ الم ولَكِن بِأَلِفٍ ولَامٍ ومِيمٍ). المستدرك 741/1.(2040) وروي موقوفاً عن ابـن مسعود، سنن الدارمي، كتاب الفضائل، باب فضل قراءه القرآن، (3181).وقال عبدا بن مسعود: (إِن هذَا الْقُرآن مأْدبةُ اللـهِ فَخُذُوا مِنْه ما استَطَعتُم فَإِني لَا أَعلَم شَيئًا أَصفَر مِن خَيرٍ مِن بيتٍ لَيس فِيهِ مِن كِتَابِ اللهِ شَيء وإِن الْقَلْب الَّذِي لَيس فِيهِ مِن كِتَابِ اللهِ شَيء خَرِب كَخَرابِ الْبيتِ الَّذِي لَا ساكِن لَه). سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن، (3173).

[4] - سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب تحزيب القرآن (1190). وقوله: (كتب من المقنطرين)، أي ممن أعطى أجراً عظيماً. عون المعبود، 192/4. قد يعترض معترض فيقول: فأين دور العلم ؟ الجواب: لا ينتقص أحد دور العلم، أو ينكر أهميته، إلا أنه ينقسم إلى قسمين: فرض عين، وفرض كفاية، أما فرض العين، فهو واجب على كل مسلم، ويأثم من قصر في تعلمه، وهو يتعلق بالأوامر التي تجب على المسلم في حياته اليومية، أما فرض الكفاية، فهو العلم الذي لا يلزم فرداً بعينه تعلمه، إنما تحتاجه الأمة بمجموعها، فيجب إعداد أفراد يقوموا بهذه المهمة، وإلا أثمت الأمة جميعها، سواء أكان من علوم الدين أم من معارف الدنيا.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (ما مِن مولُودٍ إلا يولَد على الْفِطْرة، فَأبواه يهودانِهِ، أَو ينَصرانِهِ، أَو يمجسانِهِ، كما تُنْتَج البهيمةُ بهيمةً جمعاء،[1] هلْ تُحِسون فِيها مِن جدعاء).[2]

ومن ضمن إعداد الظروف المحيطة، التي تعين على بقاء الصلاح واستمراره، حسن اختيار شريك الحياة، قال رسول الله ﷺ: (تُنْكَح المرأَةُ لِأَربعٍ لِمالِها ولحسبِها وجمالِها ولِدِينِها فَاظْفَر بِذَاتِ الدين تَرِبتْ يداك).[3] وقالَ ﷺ: (إذَا جاءكُم من تَرضون دِينَه وخُلُقه فَأَنْكِحوه إلا تَفْعلُوا تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرضِ وفَساد قالُوا يا رسولَ اللهِ وإِن كان فِيهِ،[4] قالَ: إِذَا جاءكُم من تَرضون دِينَه وخُلُقه فَأَنْكِحوه ثَلَاثَ مراتٍ).[5]

وبعد الأسرة تأتي الصحبة، أثرها كبير، وخطرها جسيم، فالصاحب كما يمكنه أن يخرب الفطرة، ويفسد ما أصلحته الأسرة، يمكنه أن يكون هادياً إلى الخير، قال رسول الله ﷺ: (مثَلُ الجلِيسِ الصالِحِ والسوءِ كحامِلِ المِسكِ ونَافِخِ الْكِيرِ فَحامِلُ المِسكِ إِما أَن يحذِيك وإِما أَن تَبتَاع مِنْه وإِما أَن تَجِد مِنْه رِيحا طَيبةً ونَافِخُ الْكِيرِ إِما أَن يحرِقَ ثِيابك وإِما أَن تَجِد رِيحا خَبِيثَةً)،[6] وقال ابن عباس ﷺ: قيل يا رسول الله : أي جلسائنا خير ؟ قال: (من ذكركم الله رؤيته ، وزاد في عملكم منطقه، وذكركم في الآخرة عمله).[7] وقد قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاء يومئِذٍ بعضهم لِبعضٍ عدو إِلَّا الْمتقِين﴾. [الزخرف 67].

---

[1] - معناه: أن البهيمة تلد البهيمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها، إنما الناس يقطعون أعضائها، والجدعاء، ما كان مقطوع الأذن من البهائم. شرح النووي على صحيح مسلم 209/16، وفتح الباري250/3.

[2] - البخاري، كتاب التفسير، باب لا تبديل لخلق الله ، (4402). مسلم، كتاب القدر، باب معنَى كُلِّ مولُودٍ يولَد علَى الْفِطْرةِ وحكْمِ موتِ أَطْفَالِ الْكُفارِ وأَطْفَالِ الْمسلِمِين، (4803).

[3] - البخاري، كتاب النكاح، الأكفاء في الدين، (4700). مسلم، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، (2661). وقال ﷺ: (لَا تَزوجوا النساء لِحسنِهِن فَعسى حسنُهن أَن يردِيهن ولَا تَزوجوهن لِأَموالِهِن فَعسى أَموالُهن أَن تُطْغِيهن ولَكِن تَزوجوهن علَى الدين ولَأَمةٌ خَرماء سوداء ذَاتُ دِينٍ أَفْضلُ). سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب تزويج ذات الدين،(1849).

[4] - قوله: (وإن كان فيه) أي شيء من قلة المال أو عدم الكفاءة. تحفة الأحوذي، 173/4.

[5] - سنن الترمذي، وقال: هذَا حدِيثٌ حسن غَرِيب، كتاب النكاح، باب إذا جاء من ترضون دينه فزوجوه(1005). حتى في أثناء الجماع يدعو كي يجنبه الله الشيطان، كما يؤذن في أذني المولود ويعق عنه، كل ذلك من هدي الرسول ﷺ. وهي أسباب ينبغي مراعتها.

[6] - البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، (5108)، مسلم، كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، (4762).

[7] - شعب الإيمان، 57/7، (9436). مسند أبي يعلى4/ 326، (2437). قال الهيثمي: فيه مبارك بن حسان وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد226/10. وقال مالك بن دينار: إنك إن تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص مع الفجار، وأنشد:

وصاحب خيار الناس تنج مسلماً   وصاحب شرار الناس يوماً فتندما

تفسير القرطبي 27/13.

وبعد الصحبة، يأتي المسجد، دوره مهم في تقوية الصلة بين العبد وربه، وأثره كبير في تمتين الروابط بين أفراد الأمة، والمسجد في الإسلام ليس مكان عبادة فقط، بل هو بمنزلة دار الحكومة، ومجلس الأمة، جلساته مفتوحة، يعقد على الأقل في اليوم خمس مرات، وإذا حدث أمر طارئ، تنادى الأعضاء لعقد جلسة مشاورات، لاتخاذ القرارات، وإصدار الأوامر، وفيه تمارس حرية الرأي وينتقد الحكام،[(1)] وعلى منبره يلقي الحاكم الجديد خطاب التولية، معلناً التزامه السير على هدي خير البرية ﷺ[(2)]

وكانت دار الأرقم في مكة مكان التقاء المسلمين ودار ندوتهم، وذلك قبل أن تفرض الصلاة، وعند وصوله إلى أطراف المدينة بنى رسول الله ﷺ أول مسجد في الإسلام، وهو مسجد قباء، وعندما وطئت قدماه أرض المدينة كان أول عمل قام به الرسول ﷺ وضع حجر الأساس للمسجد النبوي، الذي كان بمنزلة الجامعة التي تخرج منها الأبطال، والكلية التي تربى فيها القادة، والمدرسة التي تعلم منها الأبناء، والملجأ الذي أوى إليه الفقراء. كما كان مركز القيادة ومجلس الأمة.

ومما يحفظ الإيمان، ويعمق العلاقة مع الله ﷻ، ويقوي الشعور بالمراقبة، حضور المجالس التي تحفها الملائكة، وكما قيل: (من جالس جانس). وقال رسول الله ﷺ: (ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله فِيهِ إلا حفتْهم الْملائِكةُ وتَغَشتْهم الرحمةُ وتَنَزلَتْ عليهم السكِينَةُ وذَكَرهم الله فِيمن عِنْده).[(3)]

وكان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، يهتمون بتلك المجالس، فعمر بن الخطاب ﷺ كان إذا رأى أبا موسى ﷺ يقول له: (ذكرنا ربنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده).[(4)] وقال أنس بن مالك ﷺ: (كان

---

[1] - خطب عمر ﷺ فقال: (ألا لا تغالوا في صدقات النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى ثم الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ ما أصدق قط امرأة من نسائه ولا بناته فوق اثنتي عشرة أوقية فقامت إليه امرأة فقالت يا عمر: يعطينا الله وتحرمنا أليس الله سبحانه وتعالى يقول: (وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً)، فقال عمر ﷺ: أصابت امرأة وأخطأ عمر، وفي رواية: فأطرق عمر ثم قال: كل الناس أفقه منك ياعمر وفي أخرى: امرأة أصابت ورجل أخطأ). تفسير القرطبي 99/5.

[2]- خطب أبو بكر ﷺ الناس عند توليه الخلاف، ومما قاله: إن أكيس الكيس التقوى وأحمق الحمق الفجور، ألا وإن الصدق عندي الأمانة والكذب الخيانة، ألا وان القوي عندي ضعيف حتى آخذ منه الحق والضعيف عندي قوي حتى آخذ له الحق ألا واني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني. قال عمر ﷺ: رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده تعباً شديداً.السنن الكبرى للبيهقي، 6/ 353، (12788)، السيرة النبوية لابن هشام، 92/6.

[3] - سنن ابن ماجه، كتاب الأدب، باب فضل الذكر، (3781)، المسند (11037).

[4] - مصنف عبدالرزاق،486/2، (4180)، سنن الدارمي2 /564، (4179)، صحيح ابن حبان 168/16، (7196). وقال زر بن حبيش: (كان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول قم بنا نزدد إيماناً). مصنف ابن أبي شيبة، 6 /164، (30366) مصنف ابن أبي شيبة 164/6، (30365)- 126/7، (34697). وأخرجه الإمام البخاري معلقاً البخاري، كتاب الإيمان،. باب قول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس وهو قول وفعل ويزيد وينقص، 11/1، (1). وقال الأسود بن هلال: (كان معاذ ﷺ يقول لرجل من إخوانه: اجلس بنا فلنؤمن ساعة، فيجلسان يتذاكران الله ويحمدانه).

عبداللهِ بن رواحةَ إذَا لَقِي الرجلَ مِن أَصحابِهِ يقُولُ تَعالَ نُؤْمِن بِربنَا ساعةً، فَقَالَ ذَاتَ يـومٍ لِرجـلٍ فَغَضِب الرجلُ فَجاء إِلى النبِي ﷺ فَقَالَ يا رسولَ اللهِ: أَلَا تَرى إِلى ابن رواحةَ يرغب عن إِيمانِك إِلى إِيمان ساعةٍ فَقَالَ النبِي ﷺ: يرحم الله ابن رواحةَ إِنه يحِب الْمجالِس الَّتِي تُباهى بِها الْملَائِكَةُ علـيهم السلَام).[1]

أثر الإعلام في السلوك:

استجدت في العصر الحاضر وسائل تسهم في صياغة العقل البشري، تدخل تحت مسمى: الإعلام، من صحف ومجلات وأخيراً المحطات الفضائية والانترنيت. وتتصف تلك الوسائل بسرعة الانتشار وقـوة النفوذ وسهولة التناول، لكنها ليس الأعمق أثراً، والأكثر ديمومة؛ لأنها نصيرة الباطل، في الغالـب، والباطل يزهق فور مجيء الحق.

وأخطر تلك الوسائل المحطات الفضائية،[2] ويليها الانترنيت، الذي يزحف على البيوت كزحف النمـل على حبات القمح، وتتمثل خطورة تلك الوسائل في حضورها في كل بيت مـع سـهولة الاسـتعمال وسرعة التنقل بين مواخيرها، وخطرها ماثل للعيان؛ لأن الباطل بكل صوره مسخر لها، من أجسـاد النساء الكاسيات العاريات[3] إلى أموال أمراء البترول، إلى حماية الحكام، انتهاء بقطيع من الفنـانين والفنانات، ممن أجروا أعراضهم وباعوا شرفهم ونزعوا سيما الحياء من وجوههم، ممن يتهارشون تهارش الحمر على الفضائيات، إن كل مقدمات الزنا تعرض الشاشات، دون أدنى حياء، أو أقل وجل، أو بقية من خجل، أليست هذه الفتنة التي حذر منها رسول ا ﷺ.[4] عندما قال: (إِن الـدنْيا حلْـوةٌ خَضِرةٌ وإِن الله مستَخْلِفُكُم فِيها فَينْظُر كَيفَ تَعملُون فَاتقُوا الدنْيا واتقُوا النساء فَإِن أَولَ فِتْنَـةِ بنِـي إِسرائِيلَ كَانَتْ فِي النساءِ).[5] كم كان للمشاهد التي تبث على الشاشات، من أثر في وقوع جرائم زنـا

---

[1] - المسند، (13295). قال الحكيم الترمذي: كان أصحاب رسول ا ﷺ يطلبون تلك الساعة حتى قال معاذ ﷺ: لرجل تعـالى نؤمن ساعة فذكر ذلك الرجل لرسول ا ﷺ قول معاذ، وقال يا رسول ا : أو ما نحن بمؤمنين ؟! فقـال رسـول ا ﷺ: دع عنك قول معاذ فإن ا تعالى يباهي به الملائكة. ولهذه قال عبدا بن رواحة لأبي الدرداء: تعالى نؤمن ساعة فللقلـب أسـرع انقلاباً من القدر حين تغلي، وإنما الإيمان بمنزلة القميص بينما أنت لبسته إذ أنت نزعته. ولهذا قال ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)، أي أنه إذا فعل ذلك فقد خلع القميص ووضعه ناحية وإذا تاب ورجع إليه بالصدق كساه وألبسه ذلك القميص فكان هذا الإيمان عندهم استقرار ذلك النور وإشراقه في صدورهم حتى تصير الآخرة وأمر الملكوت لهم معاينة. نوادر الأصول في أحاديث الرسول 368/1.

[2] - كانت السينما تحتل الموقع الأول وخاصة ي مصر، إلا أنها غابت عن الساحة تقريباً؛ لأن التلفاز أسهل تناولاً منها.

[3] - إن الخاسر في هذه اللعبة القذرة التي يقوم بها رجال لهم أخلاق الخنازير وبلادة الحمير، هي المرأة، فهي الضحية دائمـاً إذا لعبت لعبة الشياطين، فالرجال، ممن لا يخشى ا ﷻ ، كالذئاب يفترسون الحملان الوادعة، ثم يتركونها مضرجة بدمائها.

[4] - تنشر الصحف والمجلات المصرية ضحايا وسائل الإعلام من زنا وشذوذ جنسي واعتداء على المحارم، والأعـداد أسـبوعيا بالمئات، ووجد مكتوباً على عدد ممن ألقتهم البغايا في الطرقات: هذا من أبناء الدشات، أي أن الصحون اللاقطة كانت المهيجـة على الزنا ؟!

[5] - مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، (4925).

وقتل وشذوذ. وتلك الوسائل تسرح وتمرح وتُفسد وتفضح،[1] لأن الشيطان وأعوانه أُطلقت أيديهم، بينما كُبل الحق وأنصاره ووضعوا تحت الإقامة الجبرية.[2]

وبينما تفاد الأمة من على أعواد الفضائيات، نرى بالمقابل صوت الحق خفيضاً، ونور الإيمان خافتاً،[3] إن أبناء الأمة وبناتها يقادون بواسطة (جهاز تحكم) الفضائيات التي تبث ليلاً ونهاراً فقط، بدءاً من اللباس وتقليعاته، وانتهاء بطريقة التفكير وأسلوب الحياة. إن وسائل الإعلام تدندن على نغم الشهوات، وتعزف على وتر المتع، وهي تنشر ألاعيب الشياطين، وتبث ثقافة الساقطين، وتزرع أخلاق المنحرفين. وأثر تلك الوسائل في انحراف الأخلاق وتوجيه السلوك واضح، بدءاً من انتشار الزنا وما أدى إليه من أمراض لم تكن في السابقين كما أخبر سيد البشر ﷺ،[4] وصولاً إلى

---

[1]- ماذا تفعل التائبات ويفعل التائبون - قدمت النساء على الرجال كما قدمن في آية الزنا حيث ضررهن أخطر، ممن جعل من الفن والتمثيل ماخوراً للزنا ومرتعاً للخنا ؟ - طالب بعضهم بإتلاف تلك الوثائق المشينة، لكن الحريصين على تراث أمتهم، والمحافظين على كنوز بلادهم، والغيورين على منبع العز، ومصدر الكرامة، أبوا أن يفرطوا بثروات وطنهم الاستراتيجية، التي بها تتحرر البلاد ومن دونها لا ينال الفخار ولا يوصل إلى السؤدد ؟.

[2] - إن تجارة لحوم النساء منتشرة، وعلى الهواء مباشرة على أعواد المحطات الفضائية، والقيمون عليها في الغالب هم أبناء المسلمين، ينشرون عليها أعراض بنات المسلمين، ومواصفات العرض، عموميته، فهو متاح لكل راغب، حتى من الجن أيضاً إن أرادوا – دعوهم يستمتعوا بأجساد نساء بني آدم، حرام عليكم منعهم - كما أنه يتصف بمجانيته وللجميع لمن أراد الاستمتاع بالأفخاذ والأرداف، والنهود والخدود، والعيون والشفاه، كما يتصف بإمكانية وضعه تحت الطلب في البيوت. وقد بلغ عدد المحطات الفضائية العربية المختصة بما يسمى: (فيدو كلب) سبع عشرة محطة. وانتشرت منذ سنوات ما عرف (بستار أكاديمي وسوبر ستار) تنفق مئات الملايين عليه، وكان السوبر في هذه السنة، واحد من أبناء الحرمين الشريفين، ونقل من بيروت عاصمة الخلاعة والمجون إلى بلاده بطائرة خاصة؛ حيث عاد لتوه مظفراً بعد أن حرر فلسطين وخلص العراق، ففاق المسكين صلاح الدين، مما جعله يستحق ركوب طائرة خاصة، وكانت مفاجأة الموسم أن استقبلته فتيات من بلاد الحرمين ؟!. إن الرجال والنساء يتهارشون على الشاشات تهارش الحمر.

[3]- أقمت قرب شارع الهرم في القاهرة ستة أشهر، وهو مأوى المجون ومرتع الدياثة، فلم أر خطيباً أو متحدثاً نهى عن المنكر الذي يتكرر فعله كل ليلة، في شارعهم الأغر، ومن تجرأ منهم عرض من بعيد تعريضاً، وأكثر الناس لا يفهمون حتى بالتصريح، وبينما يخرج المصلون من صلاة الفجر يعود هؤلاء الماجنون ممتطين صهوات سيارتهم أو سيارات من استأجرهم، إن تغيير هذا المنكر المستشري، وما يماثله على من تقع يا ترى ؟ وهل بقي للصمت مكان ونحن نرى شباب الأمة يحرقون بنار الشهوات. ويأبى الحمقى من أبناء هذه الأمة إلا اتباع الغرب والأخذ عنه – طبعاً الزبالة من أماكن القمامة – فزعيمة التحرر في العالم ووصيفتها بريطانيا، قررتا مضاعفة المكافأة للمداس التي تعلم على فصل البنين عن البنات؛ لأن أربعين بالمئة من الأمهات في الرابعة عشرة من أعمارهن، وصار يطلق عليهن: زوجات بلا أزواج، لأن حضرات الآباء يحتاجون إلى رعاية؛ لصغر سنهم، وهم ما قصدوا تحقيق الأبوة، إنما أرادوا تفريغ الشهوة ؟ والهند بعد أن وصلت إلى أن تحدث فيها كل نصف ساعة حالة اغتصاب قررت فرض اللباس الطويل على فتيات الجامعة ؟ والحديث يطول !.

[4]- قالَ عبدِ اللهِ بن عمر: أَقْبلَ علَينَا رسولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: (يا معشَر الْمهاجِرِين خَمس إِذَا ابتُلِيتُم بِهِن وأَعوذُ بِاللهِ أَن تُدرِكُوهن لَم تَظْهر الْفَاحِشَةُ فِي قَومٍ قَط حتى يعلِنُوا بِها إِلا فَشَا فِيهِم الطاعون والْأَوجاع التِي لَم تَكُن مضتْ فِي أَسلَافِهِم الذِين مضوا ولَم ينْقُصوا الْمِكْيالَ والْمِيزان إِلا أُخِذُوا بِالسِنِين وشِدةِ الْمُؤونَةِ وجورِ السلْطَانِ علَيهِم ولَم يمنَعوا زكَاةَ أَموالِهِم إِلا مِنِعوا الْقَطْر مِن السماءِ ولَولَا الْبهائِم لَم يمطَروا ولَم ينْقُضوا عهد اللهِ وعهد رسولِهِ إِلا سلطَ الله علَيهِم عدوا مِن غَيرِهِم فَأَخَذُوا بعض ما فِي أَيدِيهِم وما لَم تَحكُم أَئِمتُهم بِكِتَابِ اللهِ ويتَخَيروا مِما أَنْزلَ الله إِلا جعلَ الله بأْسهم بينَهم). ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات، (4009).

الاغتصاب[1] والشذوذ الجنسي، والزواج المثلي،[2] حيث أصبح معترفاً به في عدة دول، فضلاً عن الأطفال المشردين وانتشار القيم الهابطة.[3]

الخاتمة:

ينطلق الإصلاح من داخل النفس البشرية، ويبدأ من القلب إذا هو المحرك لجميع فعاليات الإنسان،[1] وإصلاحه يكون بتعميق الإيمان وترسيخ اليقين بقيومية ا ﷻ لهذا الكون، ثـم القيـام بالأعمـال وعمودها الصلاة، ليصبح إنساناً فعالاً، يقوم بمهام الاستخلاف بكل أمانة ومسؤولية.

---

[1] - وصل الأمر إلى حد اغتصاب امرأة في السبعين من عمرها.

[2]- الانحطاط الذي وصل إليه الغرب ليس له مثيل في تاريخ البشرية، حيث أصبح المنكر معروفاً، والمعروف منكراً. الجـنس مشاع غالباً عند بني الحيوان، لكن تكريم الخالق لبني الإنسان منع شيوعه، ولا تفسير لانتشار الفاحشة في الغـرب إلا القـول بهبوط من رضي ذلك إلى مستوى الحيوان، حتى أنهم انحدروا درجة لم تبلغها بنو الحيوان، وهي الشذوذ الجنسي، ثـم هبطـوا درجة أحط من سابقتيها، فأشاعوا الزواج المثلي، رجل يتزوج رجلاً مثله، وامرأة تتزوج امرأة مثلها، ويسجل هذا فـي دوائـر الحكومة، ويباركه رجل الدين ؟؟؟ !!!...لقد فاق البشر الحمير والكلاب، فما سمعنا أن حماراً يسعى إلى حمار مثله، وكذا أنثاه، الفطرة ما زالت نقية والأخلاق وفيرة عند الحمير والكلاب، لأنهم لم يتطوروا ولم يصعدوا إلى القمر، وربما فكروا بذلك إن قدر لهم الصعود ؟؟ إن حضارة الغرب اليوم غيرت القيم، وقلبت المفاهيم؛ فالحلال أصبح حراماً، والحرام حلالاً، والفضيلة رذيلة، والخطيئة فضيلة، وفشا الزنا، وانتشر الشذوذ الجنسي، وكثُر اللقطاء - في الدول الغربية بين خمسين وستين بالمئة لا يعرفـون آبائهم- وزاد الانتحار... وفي القرن الحادي والعشرين، عرفوا الزواج، كما ورد في آخر مؤتمر عقد عن المرأة، بأنه علاقة بين شخصين، دون النظر إلى جنسيهما ؟!.

[3]- نشرت مجلة القدس العربي في شهر حزيران /2005/ خبراً عن فنانة مبجلة من فنانات العرب، فعندما قيل لها: إن بعـض الإعلاميين رأوا مشاهد جنسية فاضحة، أجابت وبصفاقة الخنازير: وفيها إيه ؟ ولما قيل لها: شوهدت لك صورة بالحجاب، نفت وبعصبية: حججت إلى بيت ا الحرام ولم أسمح بأن تؤخذ لي أي صورة ؟ !. كما معروف في علم التربية أن الحـواس هـي مصدر الاتصال مع العالم الخارجي وأداة التلقي منه، فالسلوك يتأثر والطباع تتغير والأخلاق تتبدل تبعاً لما تنقله تلك الحـواس، وكلما كان المنقول يدغدغ العواطف أو يثير الشهوات، كانت الاستجابة إليه أسرع والتفاعل معه أقوى، وهذا ما تفعلـه وسـائل الإعلام، فهي تتخذ من أجساد النساء وسيلة ومن قلوب الرجال ميداناً، لابد من الوقوف وقفة مصارحة مع القائمين علـى تلـك الوسائل ولا بد من مساءلة السادة الفنانين عن الرسالة التي يقدمونها للأمة، ما هي ؟ إذا نظرنا إلى ما تبثه الفضائيات ويتلقـاه أبناء الأمة وبناتها نجد رسالة شديدة الوضوح واضحة الكلمات سهلة العبارات، رسالة الأخلاق فيها هابطة والقـيم منحرفـة، والزنا مباح والخيانة مشروعة، والدياثة شطارة، والعلاقات مفتوحة، والحياء تخلف، والعفـة انحطـاط، والمحرمـات ملغـاة، والممنوعات مشطوبة... وهذه لا تغادر أخلاق الخنازير وقيم الذئاب، ولا أعدو الحقيقة إن قلت: إن فيها تنفيذاً لسياسة الأعـداء، عن قصد أو من دونه.

تلك هي المواد التي تبثها فضائيات العالم الإسلامي، وأظنها تخالف كل قيم الإسلام ومبادئه ؟؟ إن ما يبث على الشاشات يفعـل فعل النار بالهشيم، ويسري كالسم في الجسم، وأصبحت نساء الفن ورجاله قادة الأمة والمثل الأعلى للأبناء الصاعدة، ويعرف من بطولاتهم وانتصاراتهم على القيم والمثل أكثر مما يعرف عن تضحيات الصحابة الكرام. إن ما يبث على الشاشات لهو أخطر من الأعداء، وأكثر فتكاً من جيوشها الجرارة، وأشد تدميراً من أسلحتها المتطورة؛ لأنه يميت الكرامة، ويقضي على الشهامة، ويزرع الذل ويربي على الخنوع. وإن في هذا لبلاغاً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فمشكلتنا من عند أنفسنا، والفساد يخرج من بين ظهرانينا ؟ !.

وكي يكثر الصلاح ويقل الشر ويعم الخير، ينبغي على من صلحت حاله أن يصلح غيره،[2] لأن الصلاح إن لم يحصن، ظهر الفساد وطغى الشر وكثُر المفسدون، ولصيانة الصلاح من الفساد، والاستفادة من ثمراته، وليثبُت من صلحت حاله على الصلاح ويزيد الصالحون؛ فإن من يصلح غيره أفاد نفسه قبل الآخرين؛ لأن قلبه وأذنه أقرب إلى فمه من قلوب الآخرين وأذانهم، فضلاً عن أن جميع حواسه يقظة؛ لأنها في حالة عمل، فالفائدة محققة؛ حيث ترسخ المعاني في قلبه، بينما حواس المدعوين ربما كانت مشغولة أو غير حاضرة، فلا تستحق الفائدة المرجوة.

ولقمان عندما وعظ ابنه،لم ينهه عن الشرك فقط، بل طلب منه بعد العبادة؛ حيث صلحت حاله، أن يسعى في إصلاح الآخرين، ﴿ يابنَي أَقِمِ الصلاةَ وأْمر بالمعروفِ وانْه عن المنكرِ ﴾[لقمان 17]. وقال تعالى: ﴿ ياأيها الذِين ءامنُوا قُوا أَنْفُسكُم وأَهلِيكُم نَارا ﴾[التحريم 6].

---

[1]- بين رسول ا ﷺ أهمية صلاح القلب وضرورة العمل: (إِن الله لَا ينْظُر إِلَى صورِكُم وأَموالِكُم ولَكِن ينْظُر إِلَى قُلُوبِكُم وأَعمالِكُم). مسلم، كتاب الصلة والبر والآداب، باب تحريم ظلم)، (4651)، ابن ماجه، كتاب الزهد، باب القناعة، (4133). والمعنى: أصلحوا أعمالكم وقلوبكم، ولا تجعلوا همتكم متعلقه بالبدن والمال، وا عز وجل لا يقبل المرء لحسن صورته أو لكثرة ماله، ولا يرده لقبح صورته، أو لقلة ماله، إنما يقبله لحسن عمله وخلوص قلبه، ويرده لسوء عمله أو لعدم إخلاصه. حاشية السندي على سنن ابن ماجه.

وقال العز بن عبدالسلام: (والطرِيقُ فِي إصلَاحِ الْقُلُوبِ الَتِي تَصلُح الْأجساد بِصلَاحِها وتَفْسد بِفَسادِها تَطْهِيرها مِن كُل ما يباعِد عن اللهِ وتَزيِينُها بِكُل ما يقَرب إلَيهِ ويزلِفُه لَديهِ مِن الْأحوال والْأقْوال والْأعمال وحسن الْآمال ولُزومِ الْإقْبال علَيهِ والْإِصغَاءِ إلَيهِ والْمثُول بين يديهِ فِي كُل وقْتٍ مِن الْأوقَاتِ وحالٍ مِن الْأحوال علَى حسبِ الْإِمكَان مِن غَيرِ أَداء إلَى السآمةِ والْملَال ، ومعرِفَةُ ذَلِك هِي الْملَقبةُ بِعِلْمِ الْحقِيقَةِ ، ولَيستْ الْحقِيقَةُ خَارِجةً عن الشريعةِ ، بلْ الشريعةُ طَافِحةٌ بِإِصلَاحِ الْقُلُوبِ بِالْمعارِفِ والْأَحوال والْعزومِ والنياتِ ، وغَير ذَلِك مِما ذَكَرنَاه مِن أَعمال الْقُلُوبِ ، فَمعرِفَةُ أَحكَامِ الظواهِرِ معرِفَةٌ لِجل الشرعِ ، ومعرِفَةُ أَحكَامِ الْبواطِن معرِفَةٌ لِدق الشريعةِ ، ولَا ينْكِر شَيئًا مِنْهما إلا كَافِر أَو فَاجِر ، وقَد يتَشَبه بِالْقَومِ من لَيس مِنْهم ولَا يقَارِبهم فِي شَيءٍ مِن الصفَاتِ وهم شَر مِن قُطاعِ الطرِيقِ ، ولِأنهم يقْطَعون طُرقَ الذاهِبِين إلَى اللهِ تَعالَى وقَد اعتَمدوا علَى كَلِماتٍ قَبِيحاتٍ يطْلِقُونَها علَى اللهِ ويسِيئُون الْأدب علَى الْأنْبِياءِ والرسل وأَتْباعِ الْأنْبِياءِ مِن الْعلَماءِ الْأتْقِياءِ ، وينْهون من يصحبهم عن السماعِ مِن الْفُقَهاءِ ، لِعِلْمِهِم بِأَن الْفُقَهاء ينْهون عن صحبتِهِم وعن سلُوكِ طَرِيقِهِم). قواعد الأحكام للعز بن عبدالسلام 212/2.

[2]- القيام بالإصلاح، أمر يوجبه الدين وتفرضه ضرورة التعايش الإنساني، ويقتضيه التكافل الاجتماعي، قَالَتْ زينَب بِنْتُ جحشٍ رضي ا عنها: (يا رسولَ اللهِ أَنَهلِك وفِينَا الصالِحون ؟ قَالَ نَعم إذَا كَثُر الْخَبثُ). البخاري، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، (3097). مسلم، كتاب الفتن، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج، (5128). وقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (مثَلُ الْقَائِمِ علَى حدودِ اللهِ والْمدهِن فِيها كَمثَل قَومٍ استَهموا علَى سفِينَةٍ فِي الْبحرِ فَأَصاب بعضهم أَعلَاها وأَصاب بعضهم أَسفَلَها فَكَان الذِين فِي أَسفَلِها يصعدون فَيستَقُون الْماء فَيصبون علَى الذِين فِي أَعلَاها فَقَالَ الذِين فِي أَعلَاها لَا نَدعكُم تَصعدون فَتُؤْذُونَنَا فَقَالَ الذِين فِي أَسفَلِها فَإِنا نَنْقُبها مِن أَسفَلِها فَنَستَقِي فَإِن أَخَذُوا علَى أَيدِيهِم فَمنَعوهم نَجوا جمِيعا وإِن تَركُوهم غَرِقُوا جمِيعا). الترمذي وقَال حسن صحِيح، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب منه (2099).

إن النفوس إذا أشربت الإيمان، وخالطت بشاشته القلوب، كان كغيث السماء النازل على أرض عطشى، فتنبسق الأوراق من الأغصان، وتتفتق الثمار من الأزهار، وهكذا من نطق لسانه، وصدق قلبه، أنه: لا إله إلا ا وعملت جوارحه على مقتضى: محمد رسول ا ، صنع المعجزات.[1]

لكن قد يقول قائل: أين حلول المشاكل التي تعاني منها الأمة، من فقر وهزيمة وضعف، وأين خطوات الحال، لمشكلة التخلف العلمي، والتقهقر الحضاري، والتخلص من سطوة الآخرين ؟ فنحن نأكل ما لا نزرعه ونلبس ما لا نصنعه، فما الحلول ؟

أقول وبا التوفيق: يصدر مثل هذا التساؤل عن أحد شخصين، إما عن أحمق أو عن جاهل، أما الجاهل فيمكن أن يتعلم، وأما الأحمق، فكما قال الشاعر:

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها

إن مثل الإنسان الصالح، كالمصنع الذي ينتج الآلات، وهي بدورها تنتج الأشياء الاستهلاكية، فالإنسان هو أداة البناء، ومحور القضية، إذا صلح، أصلح ما حوله، وإذا فسد، أفسد كل ما حوله، بعد ذلك يخرج من رحم الأمة جيل من المصلحين يحملون شعوراً عالياً بالمسؤولية، ويعملون بجد وإخلاص، كل حسب اختصاصه، على إزالة المعوقات، ووضع الخطط التي تجعل الأمة في مقدمة الركب الحضاري لا في مؤخرته، المعلم في مدرسته، والفني في مخبره، والصناعي في مصنعه، والطبيب في مشفاه، والجندي في خندقه...[2]

---

[1] - قال غوستاف لوبون: (حكم الإيرانيون واليونان والرومان وادي النيل إلا أنهم لم يتمكنوا من إحلال حضارتهم محل الحضارة الفرعونية، ولكن العرب جعلوا من مصر بلداً عربياً مسلماً، كان لدى الأمم الأخرى قوة السيف فقط ومن هنا لم يتمكنوا من إيجاد أي تأثير يتعدى تأثير القوة العسكرية، وعلى العكس من هذا كان لدى العرب قوة القرآن وفتحت هذه القوة أذهان المصريين حتى أنها بدلت دينهم وحضارتهم ولغتهم وكل شيء لديهم) وقال سيد آرثر كيت: (كانت نهاية الإمبراطورية البزنطية وقيام الدولة العربية في مصر حين انتصر أقل من خمسة عشر ألفاً من الجنود العرب، بينما كان عدد المصريين يعد بالملايين، فالفتح العربي لمصر لم يكن بالسيف بل كان بالقرآن، إذ تعلم المصريون قراءة القرآن ودرسوه وبدأوا في تعلم اللغة الجديدة أي اللغة العربية، لقد جعل القرآن المصريين يتكلمون اللغة العربية). واقعنا ومستقبلنا، وحيد الدين خان، ص 172.

[2] - يأمر الإسلام بالعلم، ويدعو إلى العمل، و يحض على الإتقان، أليست هذه أدوات التقدم وأسباب الرقي ؟ والإسلام أوجب على المسلمين التعلم، وقسم العلماء، بناء على قواعد الإسلام، العلم إلى فرض عين، وفرض كفاية، ومن جملة فرض الكفاية تعلم كل علم تحتاج إليه الأمة، والآيات والأحاديث التي تدعو إلى العلم وتحض عليه كثيرة جداً، وما تقدمت هذه الأمة إلا في أوقات التزامها بدينها.

إن الإسلام يحمل كل مقومات التقدم والرقي. وهما لا يبنيان حضارة خيرة، إن لم يصاحبهما بناء الإنسان وفق فطرة ا ﷻ التي فطر عليها الخلق، وإلا نشأت دول يأكل الكبير فيها الصغير، ويبغي القوي على الضعيف، وتُذل نفوس، وتُباد شعوب، وتُنهب ثروات. ولو كان الإسلام أداة التخلف وسبب الهزيمة، وعامل الانحطاط؛ لودعناه جانباً، وأخذنا بالسبل الأخرى، لكنه لما كان عكس ذلك تماماً، والصراط القويم؛ ولأن تجارب التاريخ أثبت أنه لا عز لهذه الأمة إلا به، ولا نصر دونه، فلن نحيد عنه قيد أنملة، وليس بعد هذا الحق إلا الضلال.

وبعد: فإن كل ما سبق من خطوات الإصلاح، إن هي إلا مقدمات ضرورية لتحصيل معية ا ﷻ، لأنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء، وإلا فلن تحقق نصراً، ولن تنال عزاً... ولأنه بعد التزام الأمة بأهداب الدين أورقت الأشجار وأينعت الثمار: ﴿ ولو أن أهلَ القُرى ءامنُوا واتقَوا لفَتحنَا عليهم بركاتٍ من السماءِ والأرض ولكن كذبوا فأخذْنَاهم بِما كانُوا يكسِبون ﴾[الأعراف 96]. وقال ﷻ: ﴿ ولينْصرن الله من ينْصره إن الله لقَوي عزيز ﴾[الحج40]. وهذا يفسر سبب الخذلان وسر الذل الذي تعيشه الأمة.

نتائج البحث:

- الإصلاح، تغيير الأحوال من الفساد إلى الصلاح، ومن السيئ إلى الحسن، ومن التفلت إلى الالتزام.
- الأمة في حالة تخلف وتراجع حضاري، استبيحت ديارها ودنست مقدساتها، فما المخرج وأين الحل ؟.
- دواعي إقصاء الدين في الغرب لا وجود لها في الإسلام؛ لأنه نظام إلهي، أولاً؛ ولأنه ثبت صلاحيته لكل زمان مكان، ثانياً.
- الإصلاح في الإسلام له خصوصية، فمنطلقه الإقرار بحاكمية ا ﷻ للكون، وركنه الالتزام بهدي الإسلام الذي نسخ ما قبله، وميدانه الإنسان المطالب بالتكاليف الشرعية، والخاضع للابتلاء، والموضوع تحت الاختبار، مع منحه صلاحية الاختيار.
- يقع الفساد على ما يسمى بالكليات الخمس، التي جاءت الشريعة لصيانتها وهي: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال.
- معاناة الأمة سببه عدم امتثالها المنهج الرباني بكل صوره، فإنه لا صلاح لأحوالها، ولا مخرج لها مما هي فيه، إلا بالرجوع إلى سفينة النجاة مرة أخرى.
- للإصلاح وجهتان، الأولى: المحافظة على ما هو صالح، من قيم فاضلة، الثانية: منع التصرفات المفضية إلى فساد القيم، ونشر الرذيلة.
- للإصلاح اتجاهان، الأول: الإصلاح انطلاقاً من القمة، الثاني: الإصلاح انطلاقاً من القاعدة. والتغيير من القاعدة له محوران، الأول: تغيير النفس، الثاني: تهيئة البيئة الخارجية. وتغيير النفس، يبدأ من القلب، وذلك بتعريف الإنسان بحقيقة نفسه وبعظمة خالقه، والقيام بالأعمال

والمواظبة على ذكر ا تعالى. وأهم آليات تهيئة البيئة الخارجية، الأسرة والصحبة والمسجد، ووسائل الإعلام.

- ونظراً لأن الإصلاح أمر يقتضيه التكليف، ويتطلبه الابتلاء، فإن المسؤولية تقع على عاتق كل الأفراد؛ لأن الإنسان هو عنصر إصلاح المجتمع، وأداة بناء الحضارة. والحل يستند إلى مقومين رئيسيين، الأول: القواعد والمبادئ الناظمة، والثاني: الإنسان، الذي هو مطالب بأن يسير على هدي تلك القواعد وضوء تلك المبادئ. أما الركن الأول، وهو صراط ا المستقيم، فثبتت صلاحيته بالدليل والبرهان، أما الركن الثاني، وهو الإنسان، فبصلاحه يصلح المجتمع وبفساده يفسد، فالحل يبدأ من الإنسان.
- وليكتمل الإصلاح، ينبغي الإتيان بالشق الثاني من الإيمان وهو القيام بأعمال الدين، وعلى رأسها الصلاة، لتقوية الصلة با ﷻ وزيادة المراقبة. ولتجنب الانحراف أو الانزلاق، ينبغي تهيئة بيئة تساعد على الصلاح وتصون صاحبه.

المراجع

- الأحكام السلطانية لأبي يعلى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- أحكام القرآن، أبو بكر الجصاص، (ت370هـ)، دار الفكر، دمشق.
- إحياء علوم الدين، الغزالي، دار المعرفة بيروت.
- أساس البلاغة، أبو القاسم، محمود بن عمر الزخمشري الخـوارزمي، (467-538 هـ). دار الفكر دمشق، 1979.
- اعتقاد الإمام المبجل أحمد بن حنبل، عبدالواحد بن عبد العزيز بن الحارث التميمي، دار المعرفة، بيروت.
- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، مكتبة نزار مصطفى الباز، 1996، ط/1، ت: هشام عطا.
- برقية محمودية محمد بن محمد بن مصطفى الخادمي دار إحياء التراث العربي.
- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، (1145-1205هـ 1732- 1790م).
- تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري ، أبو جعفر، (224- 310 هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407 هـ، ط/1.
- التبيان في تفسير غريب القرآن، شهاب الدين أحمد بن محمد الهـائم المصـري، (753- 815 هـ)، دار الصحابة للتراث، مصر، (1412هـ 1992م) ط/1، ت: فتحي أنور الدابلاوي.
- التوقيف على مهمات التعاريف، محمد بن عبد الرؤوف المناوي، (952-1031هـ)، دار الفكـر المعاصر، دمشق، 1410هـ، ط/1، محمد رضوان الداية.
- تحفة الأحوذي، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية.
- التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، (ت741هـ)، دار الكتـاب العربي، 1403هـ 1983م، ط/4.
- تفسير الجلالين، الجلال المحلي والجلال السيوطي، دار الحديث، القاهرة.
- تفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1421هـ 2000م، ت: ابن عثيمين.
- تفسير السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، (426- 489هـ)،، دار الوطن الرياض، 1418،هـ 1997م، ط/1، ت: ياسر بن إبراهيم، وزميله.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، لاهور، باكستان، 1403 _ 1982.

- التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، طهران، ط/2.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، دار الفكر، دمشق، 1408هـ 1988م.
- الجامع الصحيح، البخاري، دار ابن كثير، دار اليمامة، ط/3، 1406هـ 1987م، ت: د. مصطفى البغا.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصورة عـن طبعـة الكتـب المصرية، 1387هـ 1967م.
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- حاشية ابن العطار على شرح الجلال المحلي، حسن حسن بن محمد بن محمود العطار، دار الكتب العلمية، 483/2.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبـدا الأصـبهاني، (ت430 هـ ـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405هـ، ط/ 4.
- رجال الفكر والدعوة والإصلاح، أبو الحسن الندوي، دار الفتح، دمشق.
- رسالة في الإصلاح، عبد الرحمن بدوي، القاهرة.
- روح المعاني، السيد محمود الآلوسي البغدادي، شهاب الدين، أبو الفضل، (ت1270هـ ـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- سنن أبي داود، دار الفكر، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.
- سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ت: أحمد شاكر وآخرون.
- سنن الدارمي، دار الكتاب العربي، بيروت ط/1، 1407هـ، ت: خالد العلمي وزميله.
- السنن الكبرى للبيهقي، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1414هـ 1994م ت: عبد القادر عطا.
- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد، أبو عبدا القزويني، (207- 275 هـ)، دار الفكر، بيـروت، ت: محمد فؤاد عبد الباقي.
- سنن النسائي الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ1991م، ت: د. عبدالغفار البنداري.
- سنن النسائي (المجتبى) مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط/2، ت: عبد الفتاح أبو غدة.
- سنن ابن ماجه، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، القاهرة.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة، دمشق، ط/9، 1412هـ ت: شعيب الأرنؤوط.

- السيرة النبوية، عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، (ت 213 هـ)، دار الجيل، بيروت، 1411 هـ ط/ !، ت: طه عبدالرؤوف سعد.
- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد العظيم الزرقـاني، (ت 1122 هــ)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411 هـ.
- شعب الإيمان، البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410، ت: محمد السعيد بسيوني خليل.
- الصحاح، الجوهري، إسماعيل بن حماد، أبو نصر، (ت 393هـ 1003م). دار المعرفة بيروت.
- صحيح ابن حبان، مؤسسة الرسالة، ط/2، 1414هـ1993م، ت: شعيب الأرنؤوط.
- صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، ت: محمد فؤاد عبد الباقي.
- عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتـب العلميـة، ط/2، 1415هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ت: محمد فؤاد عـب البـاقي، المطبعـة السلفية.
- الفردوس بمأثور الخطاب، الديلمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1986م، ت: السيد بسـيوني خليل.
- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، عبدالقاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، أبو منصور، (ت 429 هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1977م، ط/2،
- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين، عبدالعزيز بن عبدالسلام، دار الكتب العلمية. بيروت.
- الكشاف، الزمخشري، دارإحياء التراث، بيروت، ت: عبدالرزاق المهدي.
- فيض القدير،عبدالرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط/1، 1356م.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، ط/1.
- مجمع الزوائد للهيثمي، دار الريان للتراث، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت 1407.
- مختار الصحاح، أبو بكر الرازي، ت: حمزة فتح ا ، مؤسسة الرسالة، 1407هـ - 1987م.
- مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973م، ط/2، ت: محمـد حامـد الفقي.

• المستدرك للحاكم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ت: مصطفى عبد القادر عطا.

• المسند، أحمد بن حنبل، مؤسسة القرطبي، مصر.

• مسند البزار، أبو بكر البزار، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، 1409 ت: د. محفوظ الرحمن.

• مسند الربيع ، الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري، دار الحكمة بيـروت، 1415هات، ط/1، ت: محمد إدريس، وعاشور بن يوسف.

• مسند الشاميين، الطبراني، مؤسسة الرسالة، بيروت ط/1، 1405-1984، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي.

• مسند الشهاب، القضاعي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/2، 1407- 1986، ت: حمدي بن عبـد المجيد السلفي.

• مسند أبي يعلى الموصلي، دار المأمون للتراث، دمشق، ط/1، ت: حسين سليم أسد.

• مصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر عبدا بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، مكتبة الرشيد، 1409هـ، ط/1، ت: كمال يوسف الحوت.

• مصنف عبدالرزاق، أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، (126- 211)، المكتب الإسـلامي، بيروت، 1403هـ، ط/ 2، ت: حبيب الرحمن الأعظمي.

• المعجم الأوسط، الطبراني، نشر دار الحرمين، القاهرة، ت: طارق بن عوض ا .

• المعجم الكبير، الطبراني، مكتبة العلوم والحكم، ط/2، الموصل، 1404هـ ـ 1983م، ت: حمـدي السلفي.

• معالم التنزيل البغوي، دار المعرفة، بيروت، ت: خالد عبدالرحمن العك.

• مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين أبو الحسن الأشعري، علي بـن إسـماعيل، (ت324)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/3، ت: هلموت ريتر.

• الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، (479-548)، دار المعرفـة، بيروت، 1404هـ، ت: محمد سيد كيلاني.

• منهاج السنة النبوية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، أبو العباس، (ت 661- 728 هـ)، مؤسسة قرطبة، 1406هـ، ط/1، ت: د. محمد رشاد سالم.

- **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، دار إحيـاء التـراث العربـي، ط/2، بيـروت، 1392هـ.**
- **الموطأ، الإمام مالك، دار إحياء التراث العربي، مصر، ت: محمد فؤاد عبدالباقي.**
- **الموسوعة الإسلامية العامة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1424هـ 2003م.**
- **نوادر الأصول في أحاديث الرسـول، الحكـيم الترمـذي، دار الجيـل، بيـروت، 1992، ت: د. عبدالرحمن عميرة.**
- **نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي بن محمـد الشـوكاني، (1255هـ)، دار الجيل، بيروت، 1973م.**
- **واقعنا ومستقبلنا، وحيد الدين خان، دار الصحوة مصر.**

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2005/8/25.